زکریا تامر

www.alkottob.com

الطبعة الاولى : ١٩٦٠
الطبعة الثانية : ١٩٧٨

www.alkottob.com

زكريا تامر

صهيل الجواد الأبيض

قصص

منشورات مكتبة النوري

دمشق

www.alkottob.com

جميع حقوق الطبع محفوظة

صمم الغلاف : نذير نبعـة

www.alkottob.com

قصص الكتاب

ص

الاغنية الزرقاء الخشنة ٧
الرجل الزنجي ١٥
القبـــو ٢٦
صهيل الجواد الابيض ٣٣
ابتسم يا وجههـــا المتعب ٤٣
رجل من دمشق ٥١
النجـــوم فوق الغـــابة ٧٧
الصيف ٨٤
الكنـــز ٩٠
النهـــر ميت ٩٧
قرنفـــلة للاسفلت المتعب ١٠٤

www.alkottob.com

الأغنية الزرقاء الخشنة

نهر المخلوقات البشرية تسكع طويلاً في الشوارع العريضة المغمورة بشمس نضرة ، حيث المباني الحجرية تزهو بسكانها المصنوعين من قطن أبيض ناعم ضغط ضغطاً جيداً في قالب جيد . وتعرج النهر عبر الازقة الضيقة وبين المنازل الطينية المكتظة بالوجوه الصفراء والأيدي الخشنة ، وهناك امتزجت مياهه بالدم والدموع وبصديد جراح أبدية ، وعثر النهر في ختام رحلته على نقاط مبعثرة بمهارة ، مختبئة في قاع المدينة ، فصب فيها حثالته الباقية .

وإحدى هذه النقاط مقهى صغير قابع قبالة المعمل الذي طردت منه قبل أشهر لارتكابي خطأ أتلف آلة من آلاته ، ورواد هذا المقهى عمال يشتغلون في المصانع القريبة وفلاحون وبائعون متجولون وسائقو سيارات وتراكتورات وعربات

www.alkottob.com

وحمـــالون وأناس بلا عمـــل ــ مثلي ــ يجلسون جميعاً باسترخاء ، يحتسون الشاي على مهل ، ويثرثرون دون ان يكون بينهم أي معرفة سابقة .

وصاحب المقهى أبو أحمد رجل هرم ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، شاربه كث يضفي مسحة من القسوة على وجهه المملوء بالتجاعيد ، وهو جد فخور بمقهاه وقد قال لي منذ أيام : « أبي كان فقيراً ، لم يترك لي شيئاً عندما مات ، وهذا المقهى ملكته بعد تعب وجوع وغربة . لكي يكون الانسان سعيداً ، يجب أن يكون له شيء ما .. ملكه ويخصه وحده . أنا أكره جدي ، فلو زوج أمي من رجل غني لما ذقت طعم الشقاء » .

وسألني أبو أحمد آنذاك : « أتكره جدك ؟ » .

وتساءلت بينما أنا متجه نحو مقهى أبو أحمد : بماذا أجبته عن سؤاله ؟ ! هل شتمت جدي ؟ ! قد أكون شتمت جدي وشتمت بضراوة عالماً لا أملك فيه شيئاً .

وصاح أبو أحمد مرحباً بي عندما دخلت مقهاه بخطا متئدة ، وقال لي متسائلاً بينما هو يضع أمامي كوباً من الشاي ذي اللون الخمري القاتم : « كيف حالك ؟ » .

قلت : « ما زلت بلا عمل .. لم أجع بعد » .

قال : « اشكر الله » .

قلت : « لن أنسى نصيحتك » .

www.alkottob.com

فلم يجبني بكلمة انما ادار رأسه نحو رجل يجلس بقربنا اعتدت رؤيته كلما جلست في المقهى • وقد علمت انه يعمل في بيع الملابس العتيقة ، وسأله : « أبو علي •• متى ستتزوج ؟ »

فأجاب الرجل متسائلاً بصوت ساخر : « لماذا أتزوج ؟ »

وأشار الى سيجارته المشتعلة السجينة بين اصبعيه الاصفرين وقال : « هذه زوجتي » •

فقال أبو أحمد : « لا فائدة فيك •• انت حشاش أصلي » •

وتعالى في تلك اللحظة صوت صارخ : « أبو احمد •• هات شاي » •

وابتعد عني أبو أحمد ليلبي النداء ، وقلت لنفسي : لو سألني أبو أحمد : متى ستتزوج ، لغرقت في الاسى ؛ أنا أريد ان أتزوج ولكني بلا عمل • أريد امرأة تنام في الليل لصقي • سيسكرني صوت أنفاسها • سألمس لحمها الناعم بخشوع وأنا أرتجف كأن حد مدية يضغط على حنجرتي •• سيغرق وجهي في ربيع شعرها الاسود • سأقول لها بصوت خافت مرتعش : « أنت جميلة •• لو كنت غنياً لاشتريت لك كل جواهر العالم » • وعندما تنزلق شفتها بين شفتي سينتشر في دمي خوف مبهم ، وتنمو في أعماقي الرغبة في أن أقول بذل : « آه يا ربي •• أنا أحب عناقيد العنب الحمراء النائمة في الكروم القصية » وسأتحدث آنئذ بحرارة عن جوع

www.alkottob.com

حارتنا القديمة • الجوع كان طفلاً شريراً ، يداه شرستان عذبتا بلؤم فتاة شاحبة الوجه ، اسمها اميمة ، كانت تسكن مع أهلها الفقراء في حارتنا • وعلمت يوماً من تهامس أمي مع الجارات بأن أميمة أغمي عليها بينما كانت تمشي في الطريق بسبب جوعها الشديد ، وكنت حينذاك صغير السن فبكيت من أجلها خلسة في الليل • • أحببت أميمة على الرغم من أنها كانت تكبرني بأعوام عديدة • أحببتها أحببتها • حبيبتي أميمة كانت حزينة وجميلة كمومس جسدها قمر أبيض خجول ، تخنق ضحكته الغرف المقفلة برجال ولدوا في أبنية من ذهب • أميمة كانت تزور أمي أحياناً • كانت تبكي أحياناً ، فأتمنى لو احطم جبهتي وأمحو بدمها الدموع من الأرض • كنت أحلم بأن أغدو ملكاً لكي انقذ أميمة من الجوع والفقر ، وأنا الآن ما زلت أتمنى أن أصبح ملكاً في مدينة ناسها من حجر • أنا رجل فقير بلا عمل • لا أضحك • لا أبكي • أحب الخمر والغناء والازقة الضيقة ، وأحب الشعر والخبز الأبيض والنهود الفتية والمطر • عيناي نعشان • ذئبان مريضان ، وعينا أميمة كانتا نجمتين خبزهما قلبي ، وقلبي قد يكون بلبلاً مذبوح العنق ، وقد يكون شحاذاً تبكيه عتمة الليل • في الليل هربت أميمة من حارتنا • وزعم البعض أنها قد أمست رديئة السلوك • لحم حبيبتي الأبيض كان في الليل يؤكل على مناضد من حديد بارد • ليتني قطيع من المدى المتوحشة المنغرسة في قلب مدينة لا تعطي أولادها

www.alkottob.com

سوى الجوع والتشرد والكآبة • أنا عدو المدينة المجهول • إني أذرع طرقاتها كضبع جائع بينما ترقد في جيبي سكين عتيقة نصلها منطفيء التألق ، وقد اشتريتها في يوم من الأيام • ومنذ اللحظة الأولى التي التفت فيها أصابعي حول مقبضها أيقنت بأنه كان لتلك السكين تاريخ رهيب ، ولا ريب أنها قد تعودت القتل • ولم يشعر ناس مدينتي بالخطر الذي كان يهددهم فقد كان من الممكن ان تنقض السكين في أية لحظة غضب على كتل اللحم المتحركة عبر خواء المدينة ، وتستحم في الدم الاحمر •• الدم الاحمر •• ما أجمله !

وتهز كتفي يد تنتشلني من أفكاري ، وأسمع صوت ابي أحمد : « بماذا تفكر ؟ » •

فقلت على الفور : « اني أفكر في مشكلة صعبة • لو توجت ملكاً على هذه المدينة •• فماذا سأفعل ؟ »

قال أبو أحمد وقد استولت عليه حماسة طفل : « هذا تفكير لذيذ •• قل لي •• ماذا ستفعل ؟ » •

قلت : « سأعطيك مبلغاً من المال يكفي لشراء مقهى فخم، وسآذن لك بتسميته بمقهى الملك » •

قال أبو أحمد : « أنت سخي جداً •• ماذا ستفعل أيضا ؟ » •

قلت : « سأتزوج من امرأة شاهدتها منذ مدة في الشارع • امرأة حقيقية • وجه كقمر يحتضنه شعر أسود متهدل بفوضى ، عينان خضروان ، نهدان مكتنزان يرتجفان اثر

www.alkottob.com

كل حركة صغيرة • لقد سرت وراءها مسافة طويلة متمتعاً بالحملقة الى اهتزاز ردفيها• يا لها من امرأة ! هي وحدها عالم كبير سعيد • سآمر بالبحث عنها وسأتزوجها » •

قال ابو أحمد مبتسماً : « قد تكون متزوجة » •

« ــ سأقول لزوجها بصرامة : العدالة فوق الاشخاص • أنت تمتعت بمباهج تلك المرأة طوال سنين • والآن جاء دوري أنا المعذب لكي أعرف طعم اللذة والسعادة » •

قال ابو أحمد : « وماذا سيعمل الملك بعد أن وجد ملكة ؟ » •

« ــ سأهدم المعامل ، وسأجمع الآلات في مكان واحد ، ثم أقول بصوت كله مهابة وجلال : « أنت أيتها الآلات مخلوقات مجرمة جئت من بلاد غريبة ، حاملة الينا الشقاء • اني آمر بتحطيمك باسم الانسان الذي يريد أن يحيا وديعاً نقياً طيباً » ثم سأصيح في وجوه الناس المجتمعين : « هيا يا بلهاء •• ارجعوا الى الأرض • انها الأم الوحيدة التي تعطيكم خبزاً وفرحاً دون أن تلوث قلوبكم بالكراهية » • البشر تعساء • سأحول المدينة الى قرية كبيرة محاطة بحقول خضراء ممتدة الى لا نهاية ، وسيكون لهذه القرية ساحة فسيحة جداً ، سيجتمع فيها كل مساء جميع السكان • آلاف الرجال والنساء سيشتركون في أغنية تتحدث عن الأرض والانسان والحب • ستتعانق في تلك

www.alkottob.com

الاغنية الاصوات كلها ، وسيشعر اصحابها في أثناء الغناء بأنهم أخوة وبأن الحياة ملآنة بالمسرات المختبئة ، وشيئاً فشيئاً سيتحولون الى أطفال كبار يعيشون بسعادة وسلام » .

ولذت بالصمت هنيهة ثم قلت متسائلا : « أليس هذا جميلاً يا أبا أحمد ؟ » .

وقبل أن يجيب أبو أحمد بادر الرجل الذي يعمل في بيع الملابس العتيقة الى القول : « اذا كنت تريد أن يكون الناس سعداء ، وزع عليهم من سجائري » .

قال أبو أحمد : « أجبرهم على شرب قنينة عرق في كل ليلة » .

وأردف حينما شاهدني أنهض متهيئاً للذهاب : « الى أين ؟ » .

فقلت وأنا أعطيه ثمن الشاي : « سأتمشى قليلاً . سئمت الجلوس » .

وتوقفت عند باب المقهى متردداً ، وسمعت أبا أحمد يصيح : « هل نسيت شيئاً ؟ » .

فاستدرت ورجعت نحوه ، وأخرجت السكين التي كانت تقبع في جيبي ، وقلت لأبي أحمد : « أتشتري ؟ سأشرب بثمنها شاياً اذا وافقت » .

فتناولها من يدي ، وراح يتأملها لحظة ثم قال بلهجة مرحة : « اتفقنا . لن نختلف على سعرها . انها سكين تصلح لمطبخ أم أحمد » .

www.alkottob.com

وخرجت من المقهى وأنا أحس بغبطة وبنشوة لا حد لها • سرت بضع خطوات ، ثم توقفت وحدقت : ذئاب صغيرة رمادية سجينة في قفص قضبانه فولاذية غليظة ، سمعتها تعوي بغضب في أعماقي لحظة التقت عيناي ببناء المعمل الذي طردت منه قبل أشهر • ولكني ابتسمت وقلت لنفسي : هذا المعمل سيهدم باسم الانسان في يوم من الأيام •

وتابعت مسيري فوق امتداد طويل من الاسفلت الباهت بينما كان يصدح في داخلي لحن أغنية قديمة كانت ترددها أمي حينما كنت صغير السن •

www.alkottob.com

الرجل الزنجي

١

شمسي هذا النهار قرص مستدير أصفر ، يرقد في شرايين ضوئه شيء غامض ودي يضفي مسحة من الوداعة والطمأنينة على كل الأشياء التي يمسها • واني لأتطلع فيما حولي بشيء من النهم ، فأبصر الابنية الغافية باستسلام تحت زرقة السماء التي يتبعثر عبر فضائها بضع غيوم رقيقة ، وأرى عن بعد سيارة تنساب خفيفة هادئة متزنة ، وأشجاراً خضراء متفرقة •

وأسمع في تلك اللحظة صوت الرجل الزنجي يهتف : « آه •• ما أجمل أن أكون حياً » •

والرجل الزنجي صديقي الأوحد ، وهو يحبني بصدق ولا يفارقني لحظة • انه قابع في داخلي • انه طيب بريء كطفل ولد بعيداً عن المدن ، ولكنه يغدو في بعض الأحيان شريراً الى حـد يبعث على الازدراء • وأنا أتحدث معه

www.alkottob.com

باستمرار . تتناقش معاً ونضحك ونبكي . وقبل أيام كنت جالساً في غرفتي أتحدث معه حين دخلت أمي بهدوء جعلني لا اتنبه لها فقالت لي ضاحكة : « هل جننت ؟ انك تتحدث وحدك » .

ولم أجبها بكلمة فهي لن تفهمني لو حدثتها عن صديقي الجديد الذي اكتشفته في أيام وحدتي .

وأتاني صوت الرجل الزنجي متسائلاً : « أنت سعيد.. ما السبب ؟ » .

« ــ لقد رجع الخريف .. انظر حولك .. آه ما أسعدني لأني حي » .

وطفقت أمشي بخطوات متمهلة بينما تلتهم عيناي كل ما تصادفانه في ذلك الشارع الفرعي البعيد عن الصخب . وكان يسير أمامي شاب كتفه ملتصقة بكتف فتاة شعرها أسود طويل ينسدل على كتفيها ساحراً ، وكانا يتحدثان بألفة . وربما كان الشاب يقول للفتاة : « سنتزوج في يوم قريب » .

فتجيبه قائلة بحرارة : « سيكون لنا منزل صغير » .

« ــ وسنتشاجر أحياناً » .

« وستنتهي مشاجراتنا بقبلة » .

« ــ وسننجب أطفالاً أذكياء جمالهم فاتن كجمال أمهم » .

وتملكني شوق الى رؤية وجهيهما ، ووجدت نفسي

www.alkottob.com

أحث خطواتي حتى أصبحت أتقدمهما ، ثم تطلعت اليهما وعلى شفتي ابتسامة كلها محبة وحنان ، وكان وجه الشاب وسيماً لطيفاً ، وأما الفتاة فجمالها رقيق جذاب .

وانساب الي صوت الفتاة ــ وكانت المسافة التي تفصلني عنها قصيرة للغاية ــ وكانت الفتاة تقول للشاب : « هل لاحظت كيف يتطلع الينا هذا المعتوه ؟ ! منظره مضحك » .

ولطمتني ضحكتان انطلقتا نحوي كمديتين قاسيتين . وفي الحال استحالت بهجتي الى جثة باردة متعفنة ، وراح الرجل الزنجي ينتحب انتحاباً فاجعاً وهو يردد : « أنت مضحك . لنرجع الى غرفتنا . أنت مخلوق مضحك . ثيابك عتيقة زرية . وشعرك مشعث لم تقترب منه يد الحلاق منذ أمد طويل » .

فقلت له : « أنت مسكين يا صديقي ، وأنا مسكين مثلك . الحياة جميلة ولكن بعض المخلوقات يشوهها بقسوة . فلنرجع الى غرفتنا » .

٢

هبط الليل الى الشوارع ، فتلألأت المصابيح الكهربائية في كل مكان محاولة ان تهزم عتمته ، وأنا في هذه اللحظة شاب أنيق ملتصق بمقعد حائر وسط صخب مقهى مزدحم ، فثيابي جميلة ، وياقة قميصي بيضاء صلبة تحنو على ربطة

www.alkottob.com

عنق ذات لون ينسجم بفتنة مع لون بذلتي ، وشعري مصفف بعناية ، ويحيط بي عدد من الاصدقاء الغارقين في الضحك والحديث .

قال الرجل الزنجي : « هنا مسرح بلا ستار . مسرح ممثلوه جميعاً من الهواة الذين يجيدون أداء أدوارهم الى حد يدعوك الى ان تعجب بهم على الرغم من انهم مزيفون وتافهون ويستحقون الازدراء » .

فسألته : « هل تحب الناس ؟ »

« ــ أنا لا أحب سوى النساء اللواتي استطيع مضاجعتهن » .

« ــ أنت قذر » .

فقال الرجل الزنجي : «الانسان الكامل مزيج من القذارة والنبل » .

ثم لاذ بالصمت ، وعدت أراقب الاصدقاء الذين كانوا منهمكين في تمثيل مسرحية ليس لها مؤلف معين ، ويحلو لي أن أطلق عليها هذا الاسم : « أحذية اسمها الرؤوس » .

وأصغي الى الحوار المتبادل فيما بينهم : « تعشيت لحماً وقد حاول البائع خداعي فلم ينجح لأني خبير في مثل هذه المسائل . كم كلفك العشاء ؟ ليرة ونصف ؟ هذا كثير . لماذا ؟ أنا تعشيت عند صديقي فاصولياء ورز وكان الطبخ رديئاً . لقد اعلنت خطوبة صديقنا أحمد . من ؟ أحمد الأبله ؟ هات سيكارة . اليوم اشتريت ورقة يانصيب ستربح الجائزة

www.alkottob.com

الاولى وسأنفق المبلغ على مشروع خيري هدفه القضاء على الفتيات العازبات .. سأتزوجهن كلهن ان استطعت . لو كنت تملك قنبلة ذرية فماذا ستفعل بها ؟ سألقيها على بائع اللحم المشوي الذي حاول خداعي فلم ينجح لاني خبير في مثل هذه المسائل . هل شاهدت الفيلم المعروض حالياً في سينما بلقيس ؟ لم أشاهده . وأنا أيضاً لم أشاهده . ظهري يؤلمني . اذهب الى طبيب بيطري .. » .

وشعرت بأنه علي أيضاً أن أذهب الى جهة ما .

وتلقفني الشارع بعد لحظة بين ذراعيه الصاخبتين بقسوة .

٣

كانت شفتاها القرمزيتان منفرجتين بشكل أثار الرجل الزنجي ، فصرخ : « كفاك ثرثرة .. قبلها » .

فهمست : « يجب أن أمهد قليلاً قبل الهجوم » .

« ـــ قبلها قبلها قبلها » .

فأطعته ، وتحرك ذراعي ، وطوق خصر الفتاة ، واقترب فمي يبغي لقاء الشفتين اللتين بلون الدم ، فمال رأس الفتاة الى الخلف ، وقالت متمنعة بصوت متهدج : « لا .. لا .. » .

« ـــ اذن لا تحبيني » .

www.alkottob.com

« ــ أنا أحبك وسأظل أحبك حتى النهاية » .

« ــ لماذا لا تتركيني أقبلك ؟ » .

ولم تجب ، وظلت صامتة ، فأدركت انها مصممة على هزيمة الرجل الزنجي فتصنعت الاكتئاب ، وقلت : « لقد تبدلت منذ ان خطبت الى ذلك الرجل الآخر . انت لا تحبيني وأنا لا ألومك فأنا لست بالشاب الجميل الغني » .

وابتعدت عنها ، وسقطت منهاراً على مقعد طويل ، وجمعت كل براعتي في التشميل ، وطليت وجهي بحزن .. ربما هو الذي جذبها الى الجلوس بجواري . وقالت : « لماذا تسيء فهمي ؟ أنا أحبك ، ولكن .. أوه .. أنا لا أعرف كيف أعبر عما أريد » .

كان وجهها رائعاً ، فثمة حمرة خفيفة تسري في الوجنتين ، وعيناها تحملان في أعماقهما نجمتين ترتجفان ، وشفتاها زنبقتان ارجوانيتان .

وعاد الرجل الزنجي الى الصراخ : « قبلها قبلها قبلها » .

وعاد فمي يحاول الدنو من الشفة متوجساً ، وسرعان ما التقى بها برقة ما لبثت أن تحولت الى وحشية وجوع وتمرغ .

وهمس الرجل الزنجي بصوت متحشرج : « قبلها مرة ثانية ... مرة ثالثة . قبلها قبلها . أنا سعيد فالمطر بدأ ينهمر فوق تراب الحقول العطشى » .

www.alkottob.com

وانحدرت شفاهي الى نهاية العنق ، ملتقى السحر والليونة والدفء الخلاب • رحلة الى بحيرات ترتجف تحت أقدام شلال من الرعشات المتشنجة •

واستنشقت بشراهة العبير المتصاعد من الحم الحار ، وفقد الرجل الزنجي نبرته الانسانية وهو يصرخ : « نهداها التفاحتان الناضجتان ، اتوق الى رؤيتهما ، أتوق الى رؤية الجسد كله في عريه المذهل » •

وعندما امتدت يداي ، وعرتا النهدين ، تلاشيتُ ، وبقي الرجل الزنجي وحده متوحشاً ضائعاً عبر سهول خاضعة لشمس صيف مجنون ، ولأغنية خشنة ، ولقمر من الشمع الطري •

٤

في صباح ما ، قلت للرجل الزنجي : « أنا نادم يا صديقي لاني حملت قبري في وقت جد مبكر • لكل واحد من الاحياء عمل معين وهدف صغير وخيط من البهجة البيضاء » •

فقال : « لا تندم • يجب أن تبغض الندم • انه السل في الدم » •

فقلت متسائلاً « ألم تسأم من هذه الحياة العقيمة التي تعيشها ؟ ما رأيك •• هل نرجع الى العمل ؟ »

فأجاب بعد تفكير قليل : « سنرجع » •

www.alkottob.com

وهكذا امتدت يدي لتفتح باباً قديماً هجرته منذ زمن مديد •

٥

عقربا ساعة المعمل يزحفان بكسل ، فمتى تزعق الصفارة معلنة انتهاء العمل فأنا تعب الى حد عجيب ، والرجل الزنجي يكاد يختنق ؟

وأرفع يدي ، وأمسح بظهرها العرق المتصبب من وجهي بينما يتجمع ضجيج الآلات المختلفة،ويتحد في انشودة واحدة ضارية ، تقذفني الى قلب دوامة مجنونة ، تفتتني ، تمزقني ، ثم تعيد خلقي مرة ثانية بشكل جديد ، شيئاً مخبولاً يتضاءل باستمرار وسط غابة الحديد المزمجر •

وهمس الرجل الزنجي : « سأختنق • يجب أن نبتعد عن هذا المعمل • يجب ان نهرب قبل فوات الأوان » •

ـــ « الى أين نهرب ؟ » •

ولم يجب الرجل الزنجي ، وعدت أسأله : « الى أين نهرب ؟ ليس هنـــاك أي مكان نقصده فالشوارع كلها مسدودة » •

وتململ الرجل الزنجي • وقبل ان يتكلم ، هبط على أذني صياح واحد من وكلاء صاحب المعمل : « ما بالك متوقفاً عن العمل ؟ اشتغل اشتغل » •

www.alkottob.com

وزمجر الرجل الزنجي غاضباً ، وقال : « سأتركك ان اطعته فالخضوع له عار حقيقي » .

« ـــ اشتغل اشتغل » .

« ابصق في وجهه » .

« سأطرد من العمل » .

« ستطرد من العمل . هـذا العقـاب الوحيد الذي يملكونه . وبه ستستعيد انسانيتك المفقودة ، وستهـدم سدود الشوارع » .

وجمعت لعابي في بصقة كبيرة قذفتها بازدراء .

وبعد دقائق كنت انفصل بوحشية عن كتلة ضخمة من السواد المتحجر الشاهق ، تهدر بغضب وتطلق خلفي عواءا حاداً لن أسمعه .

٦

كانت النجوم المبعثرة عبر الفضاء الاسود صغيرة بيضاء تتألق فوقي ببهاء غريب ، وكنت متمدداً على ظهري،تحتضنني أرض الحقل الصامت ، أنصت الى أغنية الهواء المتسكع حول رؤوس الاشجار بينما يتموج في مخيلتي وجه امرأة قابلتها مرة في أحد الشوارع ، فأذهلني جمالها ذو السحر الغامض. الذي تشبث بي ، ومنحني نشوة محمولة على ارتجافة طويلة قاسية ، فكأنني أبصرت دفعة واحدة جبالاً شامخة مهيبة

www.alkottob.com

ومدناً وديعة وبحاراً بلا شواطيء وادغالاً عذراء مغمورة بشعاع من شمس حمراء غاربة .

وتمتم آنذاك الرجل الزنجي بلهجة حالمة : «اني اعرفها» .

وعندها عشت لحظات خيل الي في أثنائها أني كنت أحيا قبل ولادتي حياة عجيبة ، وكان حبي لتلك المرأة عنيفاً انتهى بمأساة ما .

ويتمطى الرجل الزنجي مبتهجاً ، وتسري في أغنية الهواء نبرة جافة ، فيلتصق وجهي بالتراب الخشن الذي له رائحة جسد انثوي يمضغه جـوع شبق همجي ، ويهتف الرجل الزنجي : « الارض .. كم أحبها » .

وأتمنى في تلك اللحظة لو تهطل أمطار عجيبة ، تفقدني صلابتي ، فأتحول الى سائل تتجرعه الارض بشوق .

ويشتد حنين رئتي الى غيمات الدخان ، فتمتد اصابعي الى جيبي ، وتلتقط سيجارة ، وحينما توهج في الظلام عود الثقاب المشتعل ، سمعت حركة قريبة مني ، وكشف النور الهزيل عن جرذ ينبش التراب بأنفه . وانكمش الرجل الزنجي دونما كلمة ، وتساقط في دمي ثلج أصفر بليد . قد يدنو مني هذا الجرذ . وربما اندفع الي في أعقابه سيل جرذان جائعة ، سيغمر جثتي وينهش لحمها بشراهة .

وأهب واقفاً بحركة مباغتة ، ويبدو الحقل لعيني رقعة سوداء كبيرة تترنح في ارجائها وحشة مقبرة قديمة مهجورة ، ويغدو الهواء ثقيلاً مفعماً بنتانة لا أدري من أين أتت ،

www.alkottob.com

ويطلق كلب قابع في مكان ما نباحاً طويلاً ممطوطاً .

وتحركت قدماي بسرعة ، وراحت تتعاقب أمامي بيوت من طين وأشجار وسواقي ودروب ترابية ضيقة متعرجة . ولم اتوقف عن المسير الا عندما بلغت مدخل شارع تتناثر على جانبيه أبنية مستسلمة لسكينة باردة ، ويمتد اسفلته الباهت طويلاً لامعاً تحت صف من المصابيح الصفراء .

واشعلت سيجارة ثانية ، ثم سألت الرجل الزنجي بحيرة : « الى أين نذهب ؟ » .

وكف الثلج الاصفر عن التساقط في دمي ، وانحدرت الى عالم هـاديء يتصاعد من كهوفه غناء كآبة متوحشة ، وتساءلت وأنا أدس يدي في جيب بنطالي : « هل مات الرجل الزنجي ؟ ! » .

ويحلق غناء الكآبة المتوحشة فوق غابات من زنابق ذابلة سوداء . وأنفث دخان سيجارتي بوجوم ، ثم امضي الى الامام ، ظهري منحن ، وحذائي يضرب وجه الرصيف ضرباً سريعاً متلاحقاً على الرغم من اني كنت أدرك بوضوح ان ليس لدي ما أفعـله .

www.alkottob.com

القُبو

كنت جالساً في مقهى يفصله عن الشارع حائط من الزجاج عندما أخذ صديق ما ينصحني بالابتعاد عن قراءة الكتب ، وكانت شمس الظهيرة التي تغمر الشارع جميلة كجسد أنثى فاتنة ، فقلت له : « أنا ولدت في سنة ١٩٣١ • أمي لم تمت بعد • العالم كله كئيب » •

قال : « آه ما أجمل كلمة : فخذ » •

قلت : « ليتني كنت غراباً » •

قال : « لا شيء أشهى من امرأة عارية » •

قلت : « ليتني كنت غراباً » •

قال : « هل ضاجعت فتاة صغيرة ؟ » •

قلت : « ليتني كنت غراباً » •

www.alkottob.com

واستفاقت أزهار الصمت الغافية في أحضان أعشاب ذابلة ، ونشرت أريجاً مسكراً خدر لحمي وسرق كل الكلمات. الساعة مصلوبة على جدار المقهى ، عقرباها معولان سيحطمان قرص الشمس الصفراء . شربت قهوة بلا سكر . عقربا الساعة يتمطيان بضجر . نفثت دخان سجائر عديدة . انا تمثال من صخر صلد أملس مغروس وسط ضوضاء مخبولة. عقربا الساعة يحفران قبراً للنهار ، نهار هزيل بهجته ميتة . الضياء يشحب ولون المساء الرمادي يزحف ، وبعد قليل سيمتلك المدينة كلها وسيغدو سيدها الاسود .

رجعت الى قبوي حيث تتعاقب أيامي بلا أفراح . قلت لأمي : « هل سأل عني أحد ؟ » .

فأجابت ببرود : « لم يسأل عنك أحد » .

فامتلكتني خيبة مريرة ، وأحسست بأني من أشد المخلوقات بؤساً ، ولم أستطع البكاء لأن عيني أمي كانتا تراقباني بفضول ؛ فقصدت المرحاض ، وهناك اسندت خدي الى جداره الخشن الوسخ ، وانتحبت طويلاً دون خجل ، ثم غسلت وجهي بماء بارد ، وذهبت لمشاهدة فيلم هزلي أضحكني كثيراً . وطفقت اتمشى بتكاسل اثر خروجي من صالة السينما ، وكان القمر الابيض معلقاً في فراغ الليل الاسود ، وكان الهواء رطباً ، استنشقه بشراهة ، وتوقفت بعد مسير قليل عند قطعة أرض ملآنة بأكوام التراب والحجارة ونفايات المنازل المجاورة ، واخترت باهتمام كومة من ورق الصحف

www.alkottob.com

المزقة ثم بدأت ابول فوقها • وتذكرت آنئذ سميحة الفتاة التي كانت تحبني ببراءة وصدق ، وكان يعذبني بقسوة اشتهائي المجنون لجسدها الذي لم اتمكن من نواله على الرغم من اني حلمت دوماً باسقاطه في حريق شبقي ، فتخيلت باستمرار سميحة مغمضة العينين نصف اغماضة،تلهث مفتوحة الفم وتتأوه بحرارة بينما يتلوى جسدها العاري الناضج تحت ثقل جسدي المنتصر المغتبط بولادة افراحه المتوحشة ، وكنت اتوق الى انسحاق جسدينا في التصاق دبق محموم مملوء باللذة ، وكانت سميحة ترفض رغبتي بفزع واستغراب وان كانت تبتهج وتعانقني بقوة كلما لمست جسدها المكتنز بيدي الخشنتين واعتصرتُ بين شفتي لحم فمها ونهديها ، وحسبت وقتئذ ان حبي لها سيظل حياً حتى موتي ولكني نسيتها بعد سنوات واصبحت مجرد ذكرى تثير الآن حنقي على ماضيّ الأبله •

وبصقت بسخط ثم تابعت زحفي عبر خواء الشارع ، ومن حولي مصابيح شاحبة متدلية من أعمدة سوداء،وحارس ليلي يجر جسمه البدين بالقرب من كوخه الخشبي ، وأبنية ونوافذ قليلة مضاءة ، كانت تنساب من احداها موسيقى عذبة اصغيت اليها بكثير من النشوة •

واعترض طريقي مخلوق صغير القامة ابتدرني متسائلاً بلهجة متعالية : « كم الساعة ؟ »

فلم اتفوه بكلمة انما ابتسمت بمرح وقلت لنفسي : لماذا

www.alkottob.com

يسأل ما دام سيموت في يوم من الأيام ؟

وظلت خطـواتي محتفظة بايقـاعها البطيء • واطلقت ضحكة قصيرة اذ شعرت برغبة في حك رأسي فان تحقيقها لا يتطلب مني سوى حركة من اصابعي ، ولكن قيامي بمثل هذه الحركة وانا صغير في المدرسة كان كافياً لكي يحفز الطلاب الى التصايح هازئين : « رأسه كله قمل » •

ورفع شخص أعرفه يده محيياً : « مساء الخير » •

فأجبت بصوت جامد : « مساء الخير » •

وكنت قد غدوت في تلك اللحظة قريباً من البناية التي أسكن في قبوها • ولم تمض سوى لحظات حتى كنت انحدر الى أسفل • وحينما صفقت الباب خلفي شعرت بطمأنينة غريبة ، ولكني اكتأبت بعض الشيء اذ وجدت أمي لا تزال ساهرة تنتظرني • قالت : « تأخرت في السهرة • جسمك ضعيف وهو بحاجة الى النوم والراحة • غداً عندك شغل •• نسيت ؟ »

فأجلت نظراتي فيما حولي • اني أعيش في هذا القبو • العالم يجثم فوقي • اني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة • يوم عطلتي انتهى • غداً عمل • وزحف الى أعماقي قرف راح يتزايد شيئاً فشيئاً متبلوراً في رغبة في التقيوء ، ووجدت نفسي انحني الى الامام بحركة مفاجئة ضاغطاً باصابعي على بطني ثم أتقيأ : أع أع ، فأسرعت أمي الى الاقتراب مني متسائلة بجزع : « ما بك •• سكران ؟ » •

www.alkottob.com

وتهدل جسدي منزلقاً الى الارض ، وتكوم فوق السائل اللزج الذي تدفق من فمي قبل لحظة ، وحدقت صامتاً الى وجه أمي المذهولة ، وبدأت كل الأشياء التي حولي تغرق في لون رمادي دائب الترنح ، وتنـأى متضائلة رويداً رويداً ، فأغمضت عيني مستسلماً لدوامة من المويجـات السوداء .

وبدأت الاسطوانة السوداء تدور برتابة تحت ذراع الحاكي ، وتغلغلت الموسيقى المرحة في الهواء الذي استنشقه، ومن مقعدي القابع قبالة النافذة كنت استطيع مشاهدة رؤوس أشجار عارية متجهة الى السماء الصافية بصلاة شاحبة .

قالت المرأة : « اسمي ماريا .. أترقص ؟ » .

قلت : « أنا لا أتقن الرقص » .

فأجابت ضاحكة : « سأرقص وحدي اذن » .

وشرعت ترقص . كان في جسدها إله راح يعبر عن يأسه وعجزه وخيبته وعزلته الابدية في رقصة متنافرة مع ايقاع الموسيقى العنيفة .

ووقفت المرأة أمامي حين صمتت الموسيقى ، وسألتني وهي تلهث : « هل أنا جميلة ؟ » .

وبدت في تلك اللحظة أكثر جمالاً من سماء قرمزية كبيرة . وارتجفت حينما انفرجت شفتاها عن بسمة تسلل اغراؤها الى أعماقي كموجة عطر ناعمة . واستيقظ نهر دم حار وهدر فتياً تحت أنوار بيضاء شرسة ، واستولى عليّ

www.alkottob.com

حنين متوحش الى تجرع خمور الاله المجنون المختبيء في جسدها ، فالتصق فمي بلحم الكتف العاري ، وطفق يرتشف على مهل لذة وهبتني فيضاً من الارتعاشات الثملة • وبغتة فوجئت بتبدل بشع اذ أخذ اللحم يهتريء ويتفتت ويتساقط أرضاً قطعاً صغيرة كريهة الرائحة فأذهلني هذا التحول ، وتراجعت الى الوراء مذعوراً ، واندفعت نحو باب الغرفة ، ففتحته بضربة من قدمي ، وانطلقت الى الخارج ، تتبعني ضحكة باردة طويلة •

واحتضنني بشفقة نهار أبيض وديع أسلمني الى أحد الارصفة لأواجه ضجيج سوق متخمة بالناس •

ومضيت أشق طريقي وسط زحام الاجساد البشرية المتلاصقة بينما كانت السماء الرحبة تغرد فوقي باعثة في نفسي سلاماً عميقاً لم يعش طويلاً ، فسرعان ما مزقه صراخ طوقني من كل جانب ، وامسكتني أيدٍ كثيرة ، وجرتني نحو جثة رجل يغوص في ظهره خنجر حتى المقبض •

« أنت القاتل » •

« ــ لم أقتله •• هل أقتل أبي ؟ ! » •

« كلنا شاهدناك وأنت تقتله » •

« اشنقوه » •

« اشنقوه » •

« اشنقوه » •

وببطء شديد صعدتُ درجات المشنقة ، وعندما التف

www.alkottob.com

الحبل الغليظ حول عنقي ابتسم لي الجلاد ، وتألقت عيناه الجائعتان .

وتأرجحت في جوف فراغ . ودهمني ألم صاعق . وفتحت عيني بعد هنيهة ، فوجدت نفسي منطرحاً على ظهري وسط سهل فسيح جداً مغطى بثلج أسود وتمتد السماء فوقه قاتمة بلا ضوء . وكان الصمت المفزع ينتشر في كل الارجاء وأحسست بأن ثمة اعداء مجهولين يزحفون نحوي . وقبل أن اطلق صرخة هلع مدوية أشرقت شمس كبيرة ، وغدت السماء زرقاء رائعة ، وتلاشى الثلج الاسود ، واكتست الاراضي بخضرة ناعمة ، وهدر غنـــاء شجي مهيب تلاقت فيه واتحدت السماء والارض الخضراء والشمس وملايين البشر ، وتدفقت غبطتي كسيل منحدر من قمة جبل . وفجأة هيمن صمت عجيب وسمعت صوت امرأة يناديني .

وفتحت عيني لأجد أمي منحنية فوقي . سألتني بلهفة : « هل أنت بخير الآن ؟ انهض . سأساعدك » .

فحملقت الى المصباح الكهربائي المتدلي من السقف . هاأنذا مرة أخرى في قبوي لا أقدر على الفرار من قبضته الحجرية . اطبقت عيني باستسلام . وفي تلك اللحظة كانت الدماء المنسابة في شراييني نهر رماد بارد ، وكانت كآبتي أقسى من عذاب ارض بلا مطر ، ولم اكن اكثر من كومة لحم بائسة لا يستطيع مساعدتها أي إلـــه .

www.alkottob.com

صهيل الجواد الأبيض

غرفة الرجل المتعب بلا ضوء ، صامتة ، سوداء ، علبة صغيرة من الحجر الرطب ، أعود اليها دون حنين بعد أن تشردت طوال ساعات عبر شوارع غريقة في الضياء المنبعث من واجهات المحال المتناثرة على الجانبين ، ومن الاعلانات الكهربائية ذات الالوان المختلفة ، وكان الليل آنذاك أغنية خشنة حارة طويلة ، يتعانق بحنان في عتمة كهوفها عذوبة ربيع وتوحش نمر جائع • وكنت وطواطاً هرماً أعمى ، جنـاحاه محطمان • لا أجد خبزي وفرحي • أجهل خبزي وفرحي • يصدمني الصخب أينما سرت • فلـكم يرعبني ضجيـج المخلوقات الزاحفة حولي على الارصفة • انه يبعدني عن نفسي ، عن نقطة سوداء قابعة في داخلي ، باردة حزينة كنجم ميت • أنا لست سوى مخلوق ما ضائع في زحام مدينة

www.alkottob.com

كبيرة قديمة • لست دون جوان • لا أملك سيارة ولا بناية شامخة في شارع لا يسكنه الفقراء • جبهتي لم تلمس مرة سجادة مسجد • لست بطل ملاكمة أو مصارعة • صورتي لا يعرفها قراء الصحف والمجلات • اشتغل في اليوم ثماني ساعات • اتعب • ابتلع الطعام بسرعة عجيبة • اشترك بحماسة في مناقشات عقيمة • أقامر بمبالغ ضئيلة • أضحك ببلاهة • اغازل فتيات • اشتم الله • اصادق مومسات • أروي بحزن حكاية حبي ذات الختام الحزين • اسمع سيمفونيات سيبيلوس • أقرأ كتاباً • اتسكع في طرقات لولبية • اتجرع بنهم خموراً رديئة ، الليل دونها كآبة فاجعة •

وشعرت بشوق الى ارتياد غاب الخدر والدوار والترنح ، وقادتني قدماي الى خمارة تقدم كؤوساً من الويسكي الرديء بأسعار رخيصة • صاحبها يعرفني • أنا سكيره الصامت الكسول • أشرب • كل الاشياء تافهة وغبية • وبحركة يائسة من يدي أفرغتُ في جوفي كأس الويسكي دفعة واحدة ، ثم مسحت فمي بظهر يدي ، ورحت احدق الى ما حولي ، وتسمرت نظراتي على رجل بائس المظهر ، يجلس الى طاولة قريبة • كان يرتشف من كأسه بين الفينة والفينة رشفة ضئيلة ثم يحملق لحظة ، وبغتة ينفجر ضاحكاً ضحكة كئيبة أكثر من البكاء ، وأحسست

www.alkottob.com

بخوف غامض عندما التقت عيناي بعينيه الذليلتين • انه يبتسم لي • سأنهض وأحادثه •

قلت : « أنا عامل مسكين لا أبتسم » •

قال : « أنا في النهار بائع أقمشة وفي الليل بحار مغامر » •

قلت : « أنا أحب البحر • انه كبير غامض » •

قال : « بعد منتصف الليل عندما أسلم رأسي للوسادة تبحر سفينتي • آه لا شيء في العالم أجمل من البحر والسفر والتنقل الدائم • الشراع يرفرف ، وأنت تقف مشدود القامة، مرفوع الرأس ، تداعب الريح الرطبة خصلات شعرك ، وتنفذ الى أعماقك رائحة الملح وهدير الموج • ستضحك بسرور وحشي فكل الاحزان خلفتها وراءك • وعما قريب ستصل الى مرفأ لم تطأه قدماك من قبل • وهناك ستقابل أناساً غرباء • وستجلس في حانة تحتسي خمرتها اللاذعة على مهل • وتصغي الى موسيقى مدهشة ، ستخلقك من جديد ، وستعيد اليك طفولتك المسلوبة • وربما رقصت مع فتاة عيناها كبيرتان تصهل في اغوارهما شهوة مجنونة • آه ما أروع الاشياء الجديدة المجهولة » •

قلت : « السفر يخيفني • اني اعشق مدينتي بجنون • وقد كدت مرة ابكي عندما استنشقت رائحة عطر غريبة كانت تفوح من شارع تهطل الامطار بسخاء على مبانيه واسفلته وأشجاره » •

قال : « البلهاء وحدهم يفضلون الهدوء » •

www.alkottob.com

قلت : « أحياناً أحلم بزوجة وأطفال ومنزل • وأتمنى لو يتحقق هذا الحلم » •

قال : « أنت مجنون • ستتحول ببطء الى دودة ضجرة لا تقدر على الهرب من قفصها الفولاذي • البحر وحده يسعدني • أترحل معي الليلة ؟ » •

ورفعت كأسي مرة أخرى الى فمي ، واستقبل حلقي السائل اللاذع ، وضحكت هازئاً بتخيلاتي ، فالرجل ذو المظهر البائس ما زال جالساً وراء طاولته يشرب ويحملق ويضحك ضحكته الكئيبة أكثر من البكاء ، وما زلت ملتصقاً بمقعدي، لم ابتعد عنه لحظة •

الخمارة ستقفل أبوابها ، وعليّ مغادرتها • الساعة الشاحبة تدنو كسكين ناعمة تخترق لحمي على مهل • أقسى الساعات المريضة تقترب بينما الشارع يسترجع رجله المترنح • أنصت يا سكران الى ذلك الصفير المرح الطويل المترجرج برقة ، المنساب من فم الشاب الذي يسير أمامك بخطى ثابتة مفعمة بحيوية مدهشة • ربما كان انساناً سعيداً• أنت أيضاً كنت مثله قبل سنوات • كان لك فتاة ، مدينة أفراح ولذة • لك شفتاها الارجوانيتان تفتحان لصحرائك الجائعة أبواب كنوز توقظ النار النائمة في دمك • لك نهداها، الثلج الذي له حرارة شمس صيف • لك عيناها باسرارهما الغامضة • لك شعرها الاسود ، الغيمة المكتئبة المتهدلة بأسى فاتن على الكتفين • كان لك فتاة ، مدينة أفراح ولذة •

www.alkottob.com

سلبت منك • وها أنت الآن سكير شارع مقفر ، طين متراكم، سحابة بلا مطر ، وحيد ككلب الاسواق الاجرب ، وتعيش أيضاً ككلب الاسواق الاجرب • ستنهض في الصباح في لحظة معينة • ستتمطى وتتثاءب بتكاسل • ستغسل وجهك وتمشط شعرك وترتدي ثيابك • ستبصق كهرم مهترىء وأنت تسير في شارع مغمور بشمس النهار الجديد • ثم سيدفنك المعمل في احشائه الشرسة • تعب تعب تعب • اتنسى رائحة لحم العامل المحترق الذي تساقط عليه الحديد الناري المصهور المندلق من البوتقة التي أفلتت فجأة من الايدي التي تحملها ؟ تلك الرائحة هي العالم • لماذا تعيش يا سكران؟ لماذا لا أموت ؟ ماذا سأفعل لو كنت أملك مدناً من ذهب ؟ لو احبتني امرأة ، ماذا سأفعل ؟ اظن اني سأحدق الى لمعة حذائي الجديد وأقول بضجر : « أوه •• كل الاشياء تافهة وغبية » •

سأموت • خطوة واحدة الى الامام ، وأهرب من تعب المعمل والصياح والوجوه القاسية التي تسرق حتى الغبطة الوديعة المختبئة في عيني •

سأموت • خطواتي تتراكض على الرصيف ، تتراكض تتراكض ، ويحتويني فراغ غرفتي • سأموت • وابتدأت ابتلع الحبوب الملساء الصغيرة وأنا ابتسم ابتسامة متشفية • هي وحدها باستطاعتها ان تنقذني من تعاستي •• ستميتني •

www.alkottob.com

تمددت على الفراش دون أن أخلع ملابسي • والعالم ينأى عني بصراخه القبيح ، والنقطة السوداء المختبئة في صميمي تمزق اقنعتها ، وتظل تنمو حتى تتحول الى عنكبوت لا أقاومه بل أسقط بسهولة بين أذرعه اللزجة التي تلتف حولي وتمنعني من الحركة •

وابتهجت قليلاً حينما فتح الباب ، وابتسمت بغبطة • لقد عاد جوادي الابيض • انه يقترب ويقف بقربي حتى اني لأستطيع ان اشم رائحة جلده المثقل بعبير الارض التي وطأها خلال تجواله الطويل •

وارتجف وأنا اسمع صهيله الذي يدعوني اليه ولا أقدر على تلبيته ، ففي تلك اللحظة كنت أحس بتبلد عجيب ، فكأنني جثة طافية على وجه مياه نهر بطيء • أواه لكم اشتهيت أن يرجع جوادي الابيض الهارب لكي امتطيه وأترك له العنان ليعدو بي طويلاً عبر براري لا أفق لها •

وتعالى الصهيل مرة ثانية •• أواه انه سيرحل وحده اذا لم أبادر الى مرافقته • سيرحل وحده • وسمعت انصفاق الباب وحوافر تطرق الارض بايقاع غاضب وصهيلاً حزيناً يبتعد ويتلاشى شيئاً فشيئاً •

قلت لنفسي : سأنتظر مرة أخرى • انه سيرجع • سيمل من التشرد وحيداً •

وتناهى الى مسمعي صوت امرأة : « لا تحزن • لحمي الساخن سينسيك العالم كله » •

www.alkottob.com

قلت بذعر مستتر خلف دهشة : « من أنت ؟ »

فضحكت وقالت : « أنا صديقة طفولتك • أتذكر ؟ كان يسعدك ان تلتصق بي بشدة وتقبلني بخجل » •

قلت : « لا تخدعيني • انت عاهرة عجوز » •

فحدقت الي هنيهة وهي مذهولة ، ثم اخذت تبكي بحرقة ، فارتبكت واجتاحني حنان عارم فقلت لها باضطراب : « اغفري لي •• أنا أحبك » •

قالت : « كرر ما قلت » •

قلت : « أحبك أحبك » •

قالت : « ألا تشعر وأنت تردد هذه الكلمة بأن انساناً رائعاً سيولد في نفسك ؟ » •

قلت : « لا شيء في داخلي سوى بعض العناكب والقبور المهجورة » •

قالت بضراوة : « أنا أمقت القبور • امقتك • امقت العالم كله » •

فأغمضت عيني وأنا أحس بتعب غريب • وفي لحظات سريعة تضاءل العالم وتحول الى حجر ضخم هوى في فضاء فارغ لا أرض له ، وبقيت وحدي وجهاً لوجه مع رجل قبيح أقبل نحوي وهو يلوح بسيف متألق النصل • قال : « سأقتلك • ذلك السيف قديم وله ضحية في كل ليلة » •

قلت : « انه كمدينتي » •

قال : « سأقتلك • ستنقرض الضحايا في يوم ما ، ولن

www.alkottob.com

يبقى سواي • وعندئذ سأكون الضحية لكي يظل السيف محتفظاً بفتوته وتألقه • سأقتلك • ستتمتع بطعم لذة جديدة بينما ينزلق النصل الصلب في لحمك اللين » •

واقترب مني وعلى فمه ابتسامة ارعبتني على الرغم من انها كانت تقطر وداً ومحبة ، وتراجع جسدي الى الوراء وهو يرتعد وسط طوفان من الارتعاشات المتشنجة المتدفقة من خوف بلا قناع ، وعدت طفلاً يعدو في الازقة الضيقة المتعرجة • الطفل يضحك بعذوبة ويحتضن كل الاشياء بلهفة أمّ • آه ليتني لم أكبر • هزمتُ قبل ولادتي • ورثتُ سيف جلاد • احرقتُ أكواخ أمسي • بعتُ غدي • آه يا أمي ، تموت حديقة الياسمين في قلبي • سأهرم • آه يا نجمي المنطفيء على رخام فخذي امرأة • آه متى يهرم الموت ؟ الانهار القرمزية تنتحب بصمت في حقولي الجرداء • ناي ليلات الشتاء يصدح برقة عجيبة • راقصة بيضاء تتلوى وسط ضباب ازرق • بلبل جريح يغرد على غصن شجرة ليمون ، عطرها يقبل شباكاً أخضر • خيول متعبة نائمة على اسفلت لامع • الفجر كمشنقة • النساء يأكلن التفاح بأناة ويتمطين عاريات على وسائد من حرير • رجال من أعقاب سجائر • الصيف يغمس أصابعه الصلبة في دمي المرتجف ويركض فوق مدن مهجورة • شفتاك يا حبيبتي المسكينة حانة شاحبة الضوء يأوي اليها الرجال العائدون من الموانيء النائية• صفير قطار في شوارع صاخبة يذرعها ثلاثة متسكعين

www.alkottob.com

يتساءلون : الليـــلة كيف سنتعشى ؟ بصقت على جوع شنق غيوماً من القرنفل الضاحك • سآكل نهدين باردين تنتزعهما اظفاري الصفراء من صدر فتاة ميتة • إله مدينتي خبز • حبيبتي جميلة كالخبز ، ذليـــلة كبكاء رجل • اشرق يا وجهها الشاحب يا صباحاً متعباً • صفير قطار • وداعاً وداعاً • اللون الجاف يتحول الى ايقاع دافيء ذي أجنحة • العالم يفتح أبوابه للربيع • السماء خضراء • التراب أخضر • الجبـــال خضراء • الغيوم خضراء • البحار خضراء • الحزن أخضر • أنا أخضر •• رمادي •• أسود •• كل شيء أسود •• وبلهفة يمزق الجرح ضماده الاصفر ليستقبل حشداً من قبـــلات الموتى ، وتدق الساعة معلنة بوحشة انتصاف الليل • بيت الاطفال رماد • خذني أيا خريف الى غابات من هزال ودموع • شفتا العملاق أقدام عارية مغلولة بالذباب • وفي عيني حبيبتي المدفونة في رمال الصحارى شاهدت عربات مثقلة بالموتى تمر دون ضجيج • اطفئي شموع النوافذ • لا تنتظري عودتي يا أمي • لن استطيع الفرار • الباب موصد • ياخفاش المدينة، يا أخي ، لحمي لحريق مدينتك • ربما استطعت ان احلم بالفرار •

وسمعت في تلك اللحظة صهيل جوادي الابيض ، فقـــد رجع بسرعة لم أكن أتوقعها • سأكون صديقه الابدي •

وهتف بحرارة رجل كهل وجهه مجعد كقشرة شجرة هرمة : « البشر طيبون البشر طيبون البشر طيبون » •

www.alkottob.com

فوددت لو أضحك كمجنون ، غير ان البراري الخضراء التي لا أفق لها كانت تناديني بشوق ، تنادي الرجل المتعب وجواده .

وفي مكان ما في العالم سطع قمر نوره ازرق بارد ، وانسابت موسيقى فظة الايقاع . كان ثمة مجموعة كبيرة من الابواق النحاسية ترسل صراخاً وحشياً متحشرجاً يحاول أن يتسلق أعلى قمة ، لكن الصمت يهزمه ولا يبقى سوى كمان صغير ناعم يتأوه وحده مرتجفاً بينما كان الرجل المتعب يبتعد خلسة عن المدينة ممتطياً جواده الابيض .

www.alkottob.com

ابتسم يا وجهها المتعب

... ولقد أطعمت لحمي وذكرياتي وأحلامي الهرمة لغربان سوداء ، حوّمت فوقي في نهار شمسه باردة هزيلة ، وساعاته كلها مدفونة تحت الرماد المنهمر من جرح رجل بائس مصلوب وسط صخب مدينة كبيرة . وتعاقبت علي الاعوام الكثيرة وأنا راقد على ظهري دون فرح أو كآبة ، احملق ببلاهة الى عتمة موحشة .

وتسرب الي في احدى الليالي ضياء القمر من ثغرة في سقف قبري ، فامتلكتني قشعريرة قاسية ، وتذكرت دفعة واحدة نهدي امرأة بلون الحليب وأغنية قديمة ونهراً تنساب مياهه الخضراء بهدوء ونعومة ، واستفاق في نفسي حنين جارف الى مدينتي التي أبعدني عنها موت فظ ، فقلت لنفسي : ماذا سأخسر لو عدت الى العالم ؟

www.alkottob.com

وهكذا قدر لي أن أرجع مرة أخرى الى الشوارع حاملاً في أعماقي نشوة معلقة بالقمر المتلألىء بعذوبة تمتزج بدمائي المتدفقة في عروقي ، فأحس بأني قديس صغير وديع • ليعش البشر ببراءة تنقذ مدينتي من تعاسة متوحشة • القمر • آه ما أجمله ! وتشبثت نظراتي بوجهه المستدير الابيض ، وقلت لنفسي : القمر امرأة جميلة بيضاء • سأسرقها في يوم ما•

وأخذت أقهقه مستسلماً لغبطة مجنونة غير عابىء بنظرات الاستنكار والاستغراب التي ترمقني بها أعين المخلوقات المتحركة فيما حولي • وقال شاب لامع الشعر لشاب آخر كان يمشي بجانبه : « انظر •• هذا مخلوق تافه •• لماذا يضحك ؟ لا بد من انه سكران » •

وتلاشت قهقهاتي رويداً رويداً بينما تعاظم في داخلي الشوق الى رؤية أمي وأخوتي ، فحثت خطواتي نحو الزقاق الذي يقبع فيه البيت الذي كنت أعيش في جنباته من قبل ، وعندما وقفت أمامه ، لمست خشب بابه بحنان قبل ان تضغط اصبعي على زر الجرس ضغطتين قصيرتين ، وقلت لنفسي : « ستعرفني أمي حالاً من طريقتي في قرع الجرس ، وستفاجأ برؤية ولدها الذي مات قبل أعوام • يالفرحتها ! »

واضطربت قليلاً حينما سمعت حركة خلف الباب الذي سرعان ما انفرج عن وجه أمي ، فهتفت اعماقي بحرارة وقد خضعت لطفولة عجيبة : « آه يا أمي •• آه يا أمي » •

www.alkottob.com

وذهلت حينما سمعت أمي تقول متسائلة بصوت جامد : « ماذا تريد ؟ » .

فضحكت ضحكة مصطنعة ، وقلت بصوت حاولت جهدي ان أجعله مرحاً : « يا له من سؤال ؟ أهكذا تستقبلين ولدك ؟ » .

فأجابت ببرود : « أنت مخطيء .. اني لا أعرفك » .

فصحت بحماسة : « أنا ولدك .. ولدك الميت . ألا تذكرين كم بكيت يوم موتي ؟ » .

فقالت بالصوت الجامد نفسه : « أولادي جميعاً أحياء . أنت مخطيء . اني لا أعرفك » .

وأدارت وجهها الى الداخل ، ونادت اخوتي الذين أتوا بسرعة ، وأقفلوا الباب في وجهي صارخين : « اذهب عنا يا مجنون . نحن لا نعرفك » .

فاستندت الى الجدار وأنا أشعر باعياء غريب . آه يا أمي . من أجلك جئت من عالم الموتى . أنا وحيد دونك . أنا وحيد .

وجرتني قدماي بعد قليل نحو شارع متخم بالضوضاء ، وهناك أحسست بأني قد غدوت شيئاً ما كريهاً لا طفولة له ، ولم ألبث أن توقفت عن المسير عند أحد المطاعم ، وطفقت أتأمل من خلال واجهته الزجاجية النساء والرجال الجالسين وراء مناضد تكدست عليها صحون مملوءة بطعام شهي . وانبثق بغتة جوعي المختبيء في أغواري منذ سنين . آه

www.alkottob.com

يا أمي • أنا جـائع • وظللت غارقاً في حملقة نهمة انتشلتني منها بعد مدة طويلة يد أمسكت كتفي ، فاستدرت مذعوراً لأواجـه رجـلاً أنيقاً • قـال لي وهو يبتسم : « أنت جـائع ؟ » •

« ــ أنا بلا نقود » •

« ــ اتبعني » •

وسرت خلفه برأس منكس مسافة غير قصيرة ، وعندما وصلنا الى بناية فخمـة ، قال وهو يجتاز مدخلها دون ان يلتفت الي : « اتبعني » •

وفي غرفة أثاثها ثمين وفاخر للغاية ، ابتسم الرجل الانيق مرة ثانية ، وقال : « اذن أنت جائع وبلا نقود ؟ يمكنني في مثل هذه الحالة ان اعتبر نفسي منقذك ، فلولاي لسرقت وقتلت • أتحب القتل ؟ » •

قلت : « أنا أحب كل التجارب الجديدة » •

قال : « ستعيش سعيداً ان أطعتني وخدمتني باخلاص »

قلت بذل : « سأفعل كل ما تريد » •

فابتهج وجهه وقال : « أني أحب لو يتكلم كل الناس مثلك » •

ثم أردف بعد لحظة صمت وبلهجة جدية : « في احدى غرف هذا المنزل امرأة تضايقني • اقتلها » •

www.alkottob.com

واقترب مني ، ودس في جيبي سكينا نصلها براق ، ثم دفعني نحو باب موصد • فتحته بتردد • استدارت الي امرأة كانت تقف أمام مرآة كبيرة ، وراحت تتأملني دونما كلمة •

قلت : « ألست خائفة ؟ » •

قالت : « ستقتلني • أعرف ذلك » •

قلت : « ألست خائفة ؟ » •

قالت : « الموت لا يخيفني • انه بدء طريق الى عالم كبير جداً ومجهول » •

قلت : « ألن تصرخي ؟ » •

قالت بازدراء : « أنت جبان » •

وثبتت عليّ عينيها اللتين تقذف أغوارهما بصرخة عنيدة، تتحداني ، تذكرني برجل سكران تشاجرت معه في خمارة ، فبصق في وجهي باحتقار ، وقال بصوت مرتفع : « أنت فأر • اذهب واقتل المرأة التي يعرفها كل الذكور في المدينة ، ثم حاول بعد ذلك ان تضرب رجلاً مثلي » •

ربما شحب وجهي في تلك اللحظة • لم أتفوه بكلمة • خرجت من الخمارة تتبعني عاصفة من قهقهات السكارى الساخرة • عدت الى البيت • أخي الصغير يبكي • لماذا يبكي ؟ انه ما زال صغيراً • ضربته بقسوة جعلته يصرخ صراخاً شبيهاً بنباح كلب يلتهمه حريق كبير • صرخت أمي : لا تضربه • فقلت بصوت متهدج : سأقتله واقتلك •• غير أن غضبي انطفأ لحظة سمعت نشيجها المر • وتمنيت بعد

www.alkottob.com

لحظات لو أعانق أخي وأمي وأبكي معهما طويلاً •

وضحكت المرأة وقالت : « أنت جبان » •

فحدقت بحقد الى وجهها ، وتذكرت مرة ثانية الرجل السكران وأمي • فاجتاحني غضب هائل جعلني أحس أن يديّ قد انفصلتا عن جسدي ، وتحولت كل يد الى مخلوق غامض شرير ، له عالمه الخاص ، وله حبه وحماقته ونشوته وجريمته •

وتقلصت أصابعي وهي تضغط عنق المرأة الابيض بينما كانت تهدر في مسمعي أغنية الكراهية ذات النغم الشرس •

وتراجعت بعد هنيهة الى الخلف ، وتدلت يداي الى جانبي كجثتي صرصارين ضخمين ، تاركتين جسد المرأة ينهار الى الارض دون حياة •

وتسمرت عيناي على الجسد الهامد • لحم الانثى ما زال يحتفظ باغرائه الحار على الرغم من ثلج الموت المتساقط عليه • ولو لم يدخل الرجل الانيق الى الغرفة في تلك اللحظة لسقطت فوق الجسد وأنا ألهث •

قال الرجل الأنيق : « عمل لا بأس به • لماذا لم تستعمل السكين ؟ اتخاف من رؤية الدم ؟ لا شيء أجمل من دم أحمر مسفوح على لحم أبيض » •

ومد يده اليّ ، وكانت تحمل رزمة من الاوراق المالية ، وقال : « عندما تكون جيوبك مملوءة بالنقود ، تصبح المدينة ملكاً لك • أنت الآن سيد المدينة المجهول ، وباستطاعتك أن

www.alkottob.com

تفعل بها ما تشاء • اذهب وتمتع بوقتك » •

وعدت من جديد الى الشوارع ، وكلي توق الى خنق صراخ جوعي ، فاخترت مطعماً فخماً ، ودلفت الى داخله برأس مرفوع • وابتسمت بهزء عندما أسرع خادم المطعم نحوي وانحنى باحترام • طلبت صحناً من البفتك ، التهمته بسرعة وأنا جد معجب بطعمه اللذيذ الى حد مدهش •

وقلت لخادم المطعم بينما أنا أدفع له ثمن ما أكلت : « اللحم لذيذ جداً » •

فأجاب برصانة : « هذا مطعم للاغنياء ، وهو لا يقدم إلا أفخر الاطعمة • اللحم الذي أكلته لحم انسان بدين » •

فتساءلت بصوت خفيض أجوف « لحم انسان ؟ ! » •

واندفعت الى خارج المطعم ، وفي زاوية من زوايا الشارع حاولت أن أتخلص من الغثيان الذي داهمني بأن أتقيأ فلم أنجح ، وسرت بخطا مهتاجة وأنا أردد : « لحم انسان •• لحم انسان » •

واصطدمت بصبي يقف لصق الحائط ، فسألته بخشونة : « ما ذا تفعل هنا ؟ أليس لك بيت ؟ » •

فأجاب بذعر : « اني انتظر أمي • أنا أخاف من البقاء وحدي في البيت » •

« ــ أين أمك ؟ » •

فأشار بيده الصغيرة الى باب أحد الدور وقال : « انها هنــاك » •

www.alkottob.com

« ــ بيت أقاربك ؟ » .
« ــ ليس لي أقــارب » .
« ــ أليس لك أقــارب ؟ » .
« ــ أبي ميت » .

وتصورت في الحال أمه . انها امرأة فقيرة جميلة وديعة ملقاة الآن على سرير رجل غريب يسحق جسدها العاري بينما هي تفكر في طفلها الذي ينتظر ، وفي النقود التي ستكون ملكاً لها بعد قليل .

وحدقت بشفقة الى وجه الصبي الصغير الذي اكتست ملامحه بغلاف من الاسى الصامت فوجهي ربما كان مثل وجهه عندما كنت صغيراً أقف مرتجفاً قرب حائط صلب ، انتظر ذراعي أمي الحانيتين اللتين أدركت فيما بعد انهما كانتا تطوقان في كل ليلة عنق رجل ما ، يملك نقوداً .

وتابعت مسيري . وفي تلك اللحظات كانت المدينة موسماً عجوزاً ذات وجه شاحب متعب لا يعرف الابتسام ، وكان حنيني الى قبري أغنية اسيانة تنمو وتزدهر ، ورفعت وجهي الى أعلى فاذا بالقمر قد اختفى تماماً خلف السحب السوداء. أنا عائد الى قبري . وأخذت أركض كمجنون هلع من شارع الى شارع بينما راحت الامطار تهطل بغزارة . أين قبري ؟ أين قبري ؟ اني أضعته . لا فائدة لي في البحث . أواه يا أماه تمقت ولدها .. اني أضعت قبري فالى أين أذهب ؟

www.alkottob.com

رجل من دمشق

١

« المسرات الصغيرة »

كان الجرسون هزيل القامة ، مط صوته مطاً بليداً وهو يردد : « واحد شاي » .

وابتعد عن طاولتي بتثاقل ، ليعود بعد لحظات حاملاً كوباً من الشاي ، ابدأ بارتشافه على مهل وبغبطة فائقة . اني احب الجلوس في هذا المقهى المنزوي ذي المشروب الرخيص السعر،فهنا يحلو لي أنأغمض عيني نصف اغماضة، ثم انصت الى الصخب المتصاعد من حولي : رنين النرد المتدحرج على سطح الخشب الصلد .. صيحات .. أغنية منسابة من المذياع .. ضحكات .. كلمات تصل الى مسمعي مبعثرة :

« اسكت .. متى أصبحت تفهم في السياسة ؟ » .

www.alkottob.com

« ليتنا نستطيع ان نحيا دون خبز » .

« كل النساء مومسات » .

انصت الى كل هذا بينما أفكر في حياتي التي هي حلم كبير سعيد ، فأنا شاب أحمق عديم الفائدة . اشتغلت في أعمال كثيرة . كرهتها كلها . لذلك فان جيوبي تظل على الدوام خاوية ، وحالتي هذه لا تخجلني لأني اعتقد ان الجيوب الفارغة من النقود جزء من روح العصر الذي أعيش فيه .

ليس هناك ما أشكو منه . اني مستسلم لطمأنينة تكاد تكون بلادة . أنا احشو معدتي في النهار ثلاث مرات من خبز أبي ، واعتصر من أمي النقود التي احتاج اليها لشراء السجائر وللجلوس في المقهى وللتفرج على فيلم ما .

ولقد طالما تساءلت : لماذا أعيش ما دام ليس هناك ما أعيش من أجله ولا فائدة مطلقا في وجودي .. لماذا لا أنتحر؟

اعجبني جداً هذا السؤال ، فقد جعلني أغرق في احلام وتصورات عنيفة قاسية حزينة ولكنها لذيذة للغاية . تبدل سلوكي في البيت مما جعل أمي وأخوتي يتهامسون فيما بينهم ويسألونني : « ماذا هناك ؟ » .

فأهز رأسي صامتاً . لا شيء ، لا شيء . واضحك في سري فلا بد من ان موتي سيكون مفاجأة أليمة لهم فأمي ستبكي وتصرخ وتولول ، وابي واخوتي سيبكون أيضا بحرقة نادمين على عدم اهتمامهم بي من قبل . وأنا بالنسبة

www.alkottob.com

الى أقاربي شيء طريف مسلّ ، لذلك فمن البديهي ان يحزنوا لفقدي ، وكل من يعرفني سيجد نفسه مضطراً الى تصنع الحزن ، والا فان ألسنة الناس الحادة ستكون له بالمرصاد .

وأخذت عندما أسير في الشوارع أتمهل عند واجهات المحال الزجاجية لأتطلع الى خيالي باهتمام واتساءل : « هل يبدو من حركاتي ما ينبيء عن عزمي على الموت ؟ » .

ولشد ما رغبت في الصراخ في وجوه الناس بصوت مدوّ: اني سأموت .. هل تعرفون معنى هذا ؟

وامتنعت عن التدخين طوال اسبوع ؛ واشتريت بالنقود التي اقتصدتها موسى نصلها أبيض بارد . هكذا سأموت . طعنة واحدة ، ويجب ان تكون قوية شرسة ، في القلب تماماً ، وعندئذ سينتهي كل شيء ، وتختتم المهزلة بنهاية حزينة. غير اني أجلت هذه النهاية حتى مقدم الربيع . اني أحب الشتاء وأريد أن اتمتع بمباهجه ، ثم لتأت بعد ذلك النهاية الباكية .

حياتي حلم كبير سعيد ولكنها تغدو أحياناً تعسة الى حد مؤلم ، والسبب غالباً لا يتعدى نظرة متفحصة ذات مغزى يرمقني بها رجل أو امرأة ، أو رؤيتي لعاشقين يداهما متعانقتان بود رائع ، او سماعي لضحكة وديعة صادرة من أعماق طفل وديع . كانت حياة الآخرين مرآة أشاهد فيها تفاهة حياتي وعقمها وخلوها من أي سعادة حقيقية،فالاصدقاء لا يملون من التحدث عن مستقبلهم وعن مغامراتهم الغرامية

www.alkottob.com

بغرور نادر ثم يقولون في النهاية : « آه لقد هرمنا في سن مبكرة » .

أما أنا فلا أتحدث عن مستقبلي لأني أعرفه فهو سيكون كيومي هذا الذي أعيشه الآن ، ولن يتبدل أي شيء ، ولا اتحدث عن قصة حبي . اني احب ، ومحبوبتي تمثال مصنوع من الشمع أو من الجص ــ لا ادري بالضبط من أي مادة صنع ــ انها فتاة رائعة ، تقف باستحياء في واجهة محل لبيع الملابس النسائية ، وكم يأسرني هذا التعبير الغامض الذي يظلل وجهها الشاحب ، والذي هو مزيج من الوداعة والكآبة العميقة . وقد اخترت لها اسماً ذا رنين موسيقي : سوزي .

وفي كل مرة أذهب لرؤيتها ، يدور بيني وبينها حوار صامت فاليوم قلت لها : « أنا حزين يا سوزي » .

« لا شيء في الحياة تستحق ان تحزن من أجله » .

« أنا أحبك يا سوزي » .

« الحب حماقة كبرى » .

« حبنا مختلف عن حب الآخرين يا سوزي » .

« أنت شاب طيب » .

« انت مخلوقة نادرة يا سوزي » .

وأضفت بصوت مسموع : « أحبك أحبك أحبك يا سوزي » .

ووجدتني فجأة وجهاً لوجه أمام صاحب المحل الذي راح يتطلع الي بدهشة وريبة ، فخجلت جداً ولكني تشجعت

www.alkottob.com

وتصنعت اللامبالاة ، ومضيت نحو المقهى وأنا اشتم وألعن ، فقد كان يجب على الأقل ان انظر الى صاحب المحل باحتقار شديد ، ولكن لماذا استعيد الآن تلك الخواطر التي تبعث في نفسي انقباضاً غريباً أسود ؟

اني ملقى هنا في هذا المقهى المنزوي ، ويجب ألا أفكر في شيء سوى التمتع بسراتي الصغيرة .

اشعلت سيجارة علقتها بين شفتي وتركتها تحترق على مهل . لأبدأ اذن بالتمتع بسراتي الصغيرة التي اخلقها بمفردي . وراء الطاولة المجاورة يجلس رجل كهل . لأتخيله مليونيراً متنكراً في تلك الملابس الزرية .

سعلت سعلة مصطنعة . انه يرمقني بفضول . وبعد قليل سيترك طاولته ويقترب مني وعلى وجهه امارات فرح لا يوصف .

سيقول لي : « لقد وجدتك أخيراً .. هل تسمح لي بالجلوس ؟ » .

فأقول : « تفضل » .

« شكرا .. أنت لن تستطيع ان تتصور مقدار فرحي بلقائك .. بحثت عنك في كل مكان .. أنا رجل وحيد في هذه الدنيا ، واملك أربعة ملايين ليرة سورية ، أود أن أهبك نصفها ، ومن الواضح لدي انك انت الشاب الذي طالما فتشت عنه ، الشاب النبيل الذكي والشجاع الطيب الوديع » .

www.alkottob.com

فأقاطعه قائلاً : « شكراً جزيلاً ... اخجلني ثناؤك » .
واتصنع البلاهة فأقول : « أنا آسف لاني لم أفهم بعد ما تقصده » .
« أريد ان اهبك نصف ثروتي وهي مليونان » .
« لا .. لا .. انا شاب أبغض النقود بغضاً جنونياً » .
« آه أنت تحطمني بهذا الرفض .. آه أرجوك » .
« حسناً .. ما دمت تلح فاني أقبل بمليون واحد فقط . انه يكفيني » .
وابتسمت بغبطة وتساءلت : «ماذا سأفعل بهذا المليون ؟»
أول شيء أفعله هو شراء علبة دخان لوكي سترايك . ها هو الرجل الكهل ينهض من وراء طاولته ، ويسحق عقب سيجارته في المنفضة .
لقد دنت اللحظة المرتقبة . انه قادم ، آت الى طاولتي ، ولكن ذلك اللعين اتجه نحو باب المقهى ، محطماً حلمي ، مسرتي الصغيرة . سأضربه . سأشتمه . سأقتله . واذا ما قابلته مرة ثانية سأقول له ان والده جرذ محترم . لقد اهانني اهانة لا تغتفر . ماذا يضيره لو تأخر قليلاً حتى اكمل تخيلاتي والآن ماذا أفعل ؟
ارتديت معطفي ، واشعلت سيجارة أخرى ، ثم غادرت المقهى . كانت أرض الشارع مبللة والسماء مزدحمة بغيوم قاتمة ،وثمة ريح باردة تهب بشراسة ، فرفعت ياقة معطفي ، ووقفت عند موقف للاتوبيس مكتظ بالناس ، وبدأت أمثل

www.alkottob.com

دور الضجر من الانتظار • تأخر الاتوبيس • عندي موعد مهم جداً • المسألة مسألة حياة أو موت •

ومرت أمامي امرأة شابة مسرعة في سيرها ، وقد استرعى انتباهي الغضب الجامح الصارخ في عينيها وفي كل خلجة في وجهـــا • فاستولت عليّ حماســة مباغتــة وتساءلت :

ماذا بها ؟ هل أهانها أحد ؟ لا • هذا ظن لا يعجبني • هل هي موظفة طردت من عملها ؟ لا • هذا احتمال خاطيء • اذن لا بد من ان شخصاً قد أخبرها بأن زوجها الذي تحبه الى حد العبادة يخونها مع احدى النساء في مكان معين •

وتصورت في الحال : المسدس في درج الطاولة • تناولته المرأة الشابة بعصبية ، ودسته في حقيبة يدها ، وانطلقت الى الخارج لكي تنتقم شر انتقام • ستدفع الباب وسيفاجأ الزوج برؤيتها وسيذهل أمام المسدس المشهر عليه • وبأصبع ثابتة لا ترتجف ستضغط على الزناد •

آه يا لها من مأساة ! هيا فلألحق بتلك المرأة قبل ان تختفي عن ناظري • يالها من مأساة !

٢

« الليل في المدينة »

ليس باستطاعتي تجــاهل السؤال الذي قفز الى عيني أمي متوسلاً بنبرة ذليلة : هل وجدت عملاً ؟

www.alkottob.com

ولقد اعتادت أمي ان تستقبلني بهذا السؤال حالما أعود من الشارع ، وقالت حينما ظللت صامتاً : « صاحب البيت أتى اليوم مطالباً بالايجار .. انه يتراكم . انه رجل طيب ولكنه انتظر طويلاً وللصبر نهاية » .

فقلت : « ماذا أفعل ؟ اني أقضي كل أوقاتي كما تعلمين باحثاً عن عمل » .

ثم خلعت حذائي ، وخطوت الى داخل الغرفة ، والقيت بجسدي على السجادة الحمراء ، مسنداً ظهري الى الوسادة المحشوة بالقش . سألتني أمي قائلة : « هل تريد أن تأكل ؟ »

فهززت رأسي دون أن أجيب بكلمة بينما كان ينمو في أعماقي ذل خبيث ، وغابت أمي هنيهات ثم عادت بعدها ووضعت امامي رغيفين وصحناً ملآناً بالفاصولياء ، ثم بدأت ترتدي ملاءتها السوداء فقلت لها متسائلاً : « الى أين ذاهبة ؟ » .

« — أختك مريضة » .

ومرت فترة صمت انهمكت خلالها في حشو الخبز والفاصولياء في فمي ، وقالت أمي بينما هي تهم بمغادرة الغرفة : « لا تترك باب المطبخ مفتوحاً » .

انها تخاف من قطتنا التي كانت في تلك اللحظة متكومة في زاوية الغرفة . ناديتها : « بس بس » .

فأدارت رأسها نحوي بتكاسل ؛ وحينما وقعت عيناها على فكيّ المتحركين وعلى الصحن اسرعت الى النهوض

www.alkottob.com

واقتربت مني ، فغمست لها قطعة كبيرة من الخبز في مرق الفاصولياء • كلي يا قطتي • أمي تصرخ في وجهك دوماً : لا تجوعي معنا يا بلهـاء • اذهبي الى منازل الاغنياء • يا لأمي المعذبة ! ، لقد كذبت عليها عندما قلت لها اني ابحث عن عمل • اليوم لم افعل شيئاً سوى اني تهت بليداً فوق أرصفة المدينة • لقد قادتني قدماي الى شارع فخم ، وهناك بين مبانيه المتعالية احسست أني لست سوى بقعة سوداء تلطخ سطحاً أبيض • وفي حديقة احدى البنايات ابصرت كلباً جميلاً يداعبه طفل أكثر جمالا منه ، ووقفت ورحت اراقبهما ثم سألت الطفل : « ما اسم كلبك ؟»

فابتسم لي بسذاجة وقال : « جوني » •

« ــ ماذا يأكل كلبك » •

« ــ لحم مسلوق •• انه يأكل كيلو لحم في كل يوم » •

وتمنيت عندئذ ياقطتي ان اقول له : ما رأي أهلك ؟ ضعوا الطوق الجلدي في عنقي واطعموني اللحم •

واذا سألني ذلك الصغير ببراءة : هل تعرف ان تنبح مثله ؟ فسأقول له فوراً : حين أضع اللحم في بطني •• سأنبح ليس مثله فقط بل أحسن من كلاب العالم جميعاً •

وصاحت فتاة منادية الطفل ، أدركت من وجهها المنتفخ وبداتتها انها تعمل خادماً ، وتألمت للغاية حينما رمقتني بنظرة عدائية •

www.alkottob.com

وتحركت قدماي ببلادة بينما ظلت عيناي تحملقان الى الابنية الانيقة الجميلة ، وقلت لنفسي آنذاك : ليتني اعيش في احداها .

يا للحلم البهيج ! السيارة تقف قبالة الباب ، مشدود قربها سائق أنيق ، وفي الداخل أثاث فخم وخدم يروحون ويجيئون ، سيدي ماذا تأمر . سيدي سيدي . طعام كثير . مال كثير ، ونساء جميلات ناعمات .

ياللحلم البهيج ! ولكنه ليس حلمي أنا ، فان ما اريده في الحياة لا يتعدى بيتاً صغيراً بسيطاً أعيش فيه مع فتاة لم اقابلها بعد ولكني واثق بأني سأجدها في احد الايام ، وسأحبها باخلاص ، واريد ألا يمر يوم أجوع فيه ، واريد كذلك اذا مرضت ان يكون معي نقود تكفي لاجرة الطبيب ولثمن الدواء .

كلي يا قطتي كلي . بطنك كبير وامي محقة في تذمرها منك . حياتنا بائسة الى حد لا يطاق . لقد مرت علي شهور عديدة وأنا بلا عمل ، وأبي المسكين مهما تعب فلن يستطيع وحده أن يقدم مصاريف البيت ولا بد من مساعدته . اني أفكر احياناً في نشر اعلان في الصحف بهذا الشكل :

(شاب للبيع ، عمره خمس وعشرون سنة ، يقوم بأي عمل والثمن تأمين طعام يومي له) .

وبهذه الطريقة سأتخلص من المسؤولية ، ولكن افلاسي كان يحول دون تنفيذي لهذه الفكرة ، فالصحف لا تنشر

www.alkottob.com

اعلانات بالمجان • آه يا قطتي يجب ان اجد عملاً بأي شكل ، عملاً لا يخدش كبريائي ، فماذا سيبقى من الانسان ان سلبت منه كبرياؤه ، ماذا يبقى غير كومة لحم تتنة ؟ هل هذا صحيح يا قطتي ؟

أبي وأمي وكثيرون من الناس الذين أعرفهم لا يوافقون على هذا الرأي وينصحونني ببلاهة قائلين : « احنِ رأسك اذا أردت ان تعيش سعيداً فالرأس المرفوع يشقي حامله » •

والآن يا قطتي لم يبق من الرغيفين سوى هذه القطعة • سنقتسمها • لقمة صغيرة لك • خذي • ولقمة كبيرة لي • لا تذهبي يا قطتي • تعالي •

وحملت القطة ، وادنيت وجهها من عيني • يا قطتي العزيزة • حياتي بائسة والفقر يشنق أية ومضة فرح قد تعبر قلبي ، غير اني لن أيأس • سأزرع الامل في دمي ، وانتظر بلهفة الشمس السعيدة التي لا بد ان تشرق في يوم ما ، وستهب لكل قلب بهجة دائمة حقيقية ، وعندئذ لن ينبح في قلبي أي احساس حاقد لئيم أسود ، ولن استغرب اذا ركضت كطفل مرح في الشوارع التي تحتضن الناس ، وصرخت بملء صوتي : أنا أحبكم أيها البشر ، سواء أكنتم طيبين أم أردياء•

لا تحاولي التملص من قبضتي • لا تحاولي يا قطتي • أنت صديقتي •

وفجأة لوت القطة رأسها جانباً بحركة شرسة ، وعضت يدي عضة مؤلمة اجبرتني على تركها وأنا غاضب مذهول •

www.alkottob.com

وانقضضت عليها قبل أن تهرب ، ورحت أضربها بقسوة جعلتها تموء مواءاً حاداً • لماذا عاملتني هكذا يا قطتي ؟ لمـاذا ؟ •

وتركتها تفلت من يدي ، ووجدت نفسي اتهالك منطرحاً على الارض ، ألصق وجهي بالسجـادة الحمراء الخشنة واتنحب انتحاباً مراً •

٣

« التثـــاؤب »

أيقظني من نومي صياح آت من الزقاق أطلقه بائع متجول صوته خشن عريض ، وتمنيت لو أنهض من فراشي وأطل من النافذة وأصب فوقه سيلاً من الشتائم ، لكن خوفي من أن تصل الضجة الى مسامع والدي يمنعني من تحقيق أمنيتي فلا بد انه الآن يجلس في باحة الدار وراء نرجيلته ، منتظراً استيقاظي من النوم ليأتي اليّ ويمد كفه وهو يقول : « هات » •

وساورني بعض الانقباض اذ تذكرت النقود المبددة في ليلة أمس • آه يا ليتني لم أقابل تلك المرأة العـاهرة التي التقيت بها بينما كنت اتمشى مكتئباً عبر عتمة المساء ، ولم يكن في جيبي سوى عشرين ليرة •• هي كل ما تبقى من راتب الشهر الذي قمت بتوزيعه على بائع السجائر والبقال والحلاق

www.alkottob.com

والخيـاط ، وكنت قد وعدت أبي بأن أعطيه أربعين ليرة حالما اتسلم راتب الشهر ، وكان قلبي آنذاك يرتجف خائفاً كلما تخيلت موعظة أبي الطويلة التي ستكون عقابي حين أمد يدي بمبلغ عشرين ليرة فقط .

وعندما أبصرت تلك المرأة ارتبكت وحاولت تجاهلها غير أنها أقبلت نحوي وحيتني بحرارة ثم قالت متسائلة بمرح : « أين كنت مختبئاً .. هل تزوجت ؟ لقد مرت فترة طويلة لم أرك خلالها » .

وكدت أقاطعها قائلاً : ماذا تفعلين بي ان كنت مفلساً ؟

ولكزتني قائلة : « تعال معي . سأدلك على بيتي الجديد الذي استأجرته أخيراً . انه قريب » .

وتلمست أصابعي النقود بقلق ، وقلت لنفسي مطمئناً : سأذهب معها لرؤية البيت فقط .

وضغطت أصابعي بشدة على النقود عندما استلقت المرأة على السرير ، واجتاحتني رغبة قوية في احتوائها بين ذراعي ، وتأكدت من أن النقود القابعة في جيبي قد أصبحت مهددة بخطر الضياع . وحاولت خنق رغبتي ، فحولت عيني عن المرأة ، ورحت أجيل أنظاري في أرجاء الغرفة المستسلمة لضوء شاحب . الاثاث عادي وبسيط للغاية ولكن اناقته فاتنة ، ووجدت نفسي أتساءل : لماذا لا تتزوج هذه المرأة وتحيا بسلام ؟

وسمعت صوتها المتسائل : « هل أعجبك بيتي ؟ » .

www.alkottob.com

وتنهدت ثم أردفت قائلة : « أنا متعبة جداً » .

فتسمرت نظراتي عليها . شفتاها منفرجتان ، وعيناها متعبتان فيهما تألق جائع ، واستلقاؤها باستسلام على وجه السرير يبرز اكتناز نهديها بشكل عنيف الاغراء . قلت لها ببطء : « بيتك جميل .. أعجبني للغاية » .

ونهضت وتمطيت وأنا أتثاءب ، وقلت بينما كانت خطواتي تدنو من السرير : « أنا متعب مثلك » .

آه يا لها من امرأة لطيفة وجميلة ، فعندما استنشقت رائحة شعرها دهمتني عاطفة مفاجئة كادت تنسيني أني مع امرأة عاهرة ، وتجعلني أظن اني أعانق صبية صغيرة برئة . آه يا لها من امرأة لطيفة . أبديت رغبة في الذهاب ، فمانعت قائلة : « لن تذهب قبل أن تشرب القهوة » .

وراحت تحدثني عن متاعبها بينما كنت أرتشف القهوة على مهل ، وأرقبها وأقول لنفسي : هذه المرأة طيبة وتستحق بيتاً وزوجاً صالحاً .

وغمرتني شفقة جارفة دفعتني الى أن أدس في يدها العشرين ليرة حينما كانت تودعني عند الباب ، وأنا لست نادماً على عملي هذا ، ولكن كيف سأواجه أبي هذا الصباح ؟ آه ما أتعس حياتي . سئمت البؤس . وفي يوم ما ، سأذبح قلبي المعتوه الذي يعشق هذه المدينة البخيلة على الرغم من أن حياته فيها مجرد بكاء طويل ، وسأتيه عبر الارض الكبيرة ، وقد أجوع وأشقى ، وقد أصبح متسولاً ، ولكنني سأكون

www.alkottob.com

سعيداً لأني سأشاهد وجوهاً ومدناً جديدة . ربما عثرت في أثناء طوافي على مدينتي التي أحلم دوماً بامكان وجودها ، مدينة من نوع جديد غريب ، مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر ، لا تاريخ لها وأيامها تمر بلا أسماء ، والسماء والقمر والربيع والليل والخريف والشتاء والنهار والصيف.. كل هذه العناصر طليقة حرة غير مرتبطة بزمان معين أو بلون واحد ثابت لا يتبدل ، وناس هذه المدينة يشتغلون جميعاً في اليوم الواحد بضع ساعات فقط ، ويقضون بقية أوقاتهم في الاسترخاء والتثاؤب والانتشاء بمسرات غامضة ،وعندما أصل الى تلك المدينة سيقول لي المشرفون عليها : « أيها الغريب .. لا بد من أن تنجح في الاجابة عن أسئلتنا حتى يتم قبولك في مدينتنا » .

ويدور الحوار التالي بيني وبينهم :

« ما اسمك ؟ » .

« ـــ أنا بلا اسم » .

« متى ولدت ؟ » .

« ـــ لم أولد بعد » .

« هل تحب العمل ؟ »

« ـــ لا .. أنا أحب كل الاشياء إلا العمل » .

« ما هو الشيء الذي يرفع المخلوق البشري الى مرتبة انسان ؟ » .

www.alkottob.com

« ــ الكسل » .

« ما هي أحسن الفضائل ؟ » .

« ــ الكسل » .

« ما هوايتك ؟ » .

« ــ التثاؤب » .

وهنا سيصافحونني بحرارة قائلين : « ادخل مدينتنا فأنت مواطن مثالي . اعمل ليومك فقط ، وعش كما تشتهي . استسلم لنزواتك ، وافعل كل الحماقات بحماسة » .

وهناك سألتقي بامرأة بياضها حقل ثلج أو وجه قمر سعيد ، وليل الادغال العذراء زنجي يستجدي سواده وعطره من شعرها،وتتعانق عبر سماء عينيها الخضراوين شراسة المرأة المتوحشة ووداعة طفولة ابدية . ستقول لي بعذوبة فائقة : « يجب أن تحارب ؟ » .

« ــ من سأحارب ؟ »

« ــ يجب أن تعمل ؟ »

« ــ أي عمل ؟ » .

« ــ يجب أن تمتطي جواداً » .

« ــ أنا لا أملك سيفاً » .

« ــ يجب أن تكون بلبلاً » .

« ــ صوتي خشن مبحوح » .

« ــ كن نسراً » .

« ــ ولدت بلا أجنحة » .

www.alkottob.com

« ــ كن كلمة مرتجفة في أغنية حب » .

« ــ أنا غضب سجين » .

« ــ ستموت يوم يسقط الثلج » .

فأقول عندئذ بكآبة : « سأموت يوم يسقط الثلج » .

وسأحب هذه المرأة بصمت حتى موتي . وفي ساعات وحدتي سأبحث عن كلمات جديدة غريبة ذات ايقاع فظ ، وسأغنيها لنفسي بصوت ثمل ، فالعالم دون كلمات وغناء بائس الى حد فاجع . آه ما أجمل الحياة هناك في تلك المدينة . سأرحل في يوم لا بد من مقدمه ، سأترك خلفي مدينتي المكتظة بالجيف المتحركة ، وسأنقذ نفسي من أسى مرير يتعقبني باستمرار ، وها أنذا سأواجهه بعد لحظات ، فان قدمي أبي تقرعان خشب الدرج الموصل الى غرفتي . انه آت بلا ريب ليطالبني بالنقود . ما العمل ؟ وأسرعت الى تصنع النوم العميق . فتح الباب . أطلت سعلة أبي الجافة القصيرة ، ثم سادت لحظة صمت لم أتحرك خلالها ، وسمعت وقع خطا أبي المتجهة نحو ملابسي . انه سيفتشها ، وسيفاجأ برؤية الجيوب الفارغة . وسرعان ما هزتني يد أبي وعلا صوته صارخاً : « أين النقود ؟ » .

ففتحت عيني متصنعاً الدهشة : وعاد يكرر سؤاله بلهجة غاضبة : « أين النقود ؟ » .

ماذا أفعل ؟ يجب أن أنقذ نفسي من غضبه وموعظته ،

www.alkottob.com

ولا مفر من اللجوء الى الكذب على أبي ذي القلب الطيب • قلت : « لا تغضب بسرعة يا أبي • انتظر ريثما أشرح لك ما حدث بالنقود • البارحة زرت صديقاً قديماً فوجدته مريضاً وعلمت انه متعطل عن العمل منذ مدة طويلة وهو مسؤول وحده عن عائلة كبيرة فلم أتردد في اعطائه ما في جيوبي مع انه رفض ولم يقبل بأخذها إلا بعد الحاحي الشديد وتوسلي » •

وكانت النظرة الواحدة الى وجه أبي كافيـة لأن اتبين أني قد نجحت في الكذب نجاحاً باهراً فقد تلاشى غضبه وحلت محله حيرة بائسة •

ووقف لحظة متردداً ثم ما لبث ان خرج من الغرفة صافقاً الباب خلفه بشدة دونما كلمة •

وتنهدت بارتياح ثم أغمضت عيني ، وعدت أحـلم بالرحيل الى مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر •

٤

« الخبز والكآبة »

شارع فؤاد الاول يتمطى سعيداً تحت ضياء شمس الربيع ، وثمة ناس كثيرون منتشرون على أرصفته ، والسماء فوقي رحبة وديعة زرقاء ، وأنين عربات الترام وهدير محركات

www.alkottob.com

السيارات يمتزجان معاً في صوت واحد يجعلني أحس بغربة بلهاء ، وخطوتي حركة رتيبة تتكرر على بلاطات الرصيف المربعة الصغيرة بينما أنا أنفث دخان سيكارتي حاملاً تعاستي وهرم أعماقي على وجهي الشاحب .

وتوقفت عن المسير عند دكان أبي الخير بائع الصحف والعرق والسجائر لأتحدث اليه كعادتي كلما مررت به . حييت أبا الخير،وأسرعت اسأله : « هل تغير سوق العرق ؟ » .

فابتسم ابتسامة عريضة وقال : « لا .. اطمئن » .

فاستأنفت سيري قاصداً حلاقي الذي لا يبعد سوى خطى قليلة وأنا مسرور للغاية . لا صحة اذن للشائعة القائلة إن ثمن العرق قد ارتفع ، فثمن العرق والنساء والخبز يجب أن يظل على الدوام رخيصاً لان هذه الاشياء وحدها تعطي معنى ممتعاً للحياة .

وكان صالون الحلاقة شبه فارغ ، وكان صاحبه منهمكاً في تسريح شعر أحدهم ، فاتكأت عند المدخل ، وأخذت أرقب ما يزحف تحت نظرتي من مخلوقات تعبر الشارع . اني ظامىء ، شديد الشوق الى جسد المرأة .. أي امرأة . باستطاعتي الذهاب الى الماخور ، ولكني أفضل عاهرات الشوارع اللواتي يحافظن على جزء ضئيل من وهم سعيد يعطينه لمن يضاجعهن . في ليلة البارحة قضيت أكثر من ساعتين أجوب شارع بغداد مفتشاً عن امرأة وكدت أنجح في ايجاد بغيتي أكثر من مرة . لكن السيارات اللعينة كانت

www.alkottob.com

لي بالمرصاد • تقف السيارة بحذاء الرصيف ، ويفتح بابها ، وتبتلع المرأة العاهرة التي تفضل أصحاب السيارات على المشاة أمثالي • يا للـدناءة !

ومرت فتاة ناضجة الأنوثة أكلتها نظرتي الجائعة على مهل • عيناها السوداوان ليل همجي تشبث بي ، وشدني الى هوةٍ وحشتها مرعبة ، ونهداها يشدهما اليه الثوب شداً قاسياً ، واهباً لهما فتنة متوحشة • اشتهيتها بعنف ، وضغطت على أسناني بينما كانت الفتاة تبتعد رويداً رويداً عن ناظري ، تاركة في جسدي ارتجافة ضارية تعذبني ، وكدت أتحرك لألحق بها لولا نداء الحلاق الذي تعالى في تلك اللحظة •

وجلست على الكرسي المريح ، وأسلمت رأسي الى مسنده ، وراحت الفرشاة الناعمة تتمرغ على وجهي مغطية اياه بطبقة كثيفة من رغوة الصابون ، ثم بدأت الموسى الحادة تزحف ببطء فوق الجلد حتى وصلت الى عنقي ، وفكرت هلعاً : حركة فجائية من رأسي الى الامام وتنغرس شفرة الموسى في حنجرتي التي بلغتها في تلك اللحظة ، منتزعة شهقة فزعة •

وبصقني صالون الحلاق بعد قليل الى الشارع ، وعادت السيكارة الى الاحتراق • السيكارة صديقتي وهي تظل على الدوام معلقة بين شفتي بينما أنا أسير حاملاً تعاستي وهرم أعماقي على وجهي الشاحب • أنا لا أستطيع ان أجد

www.alkottob.com

وجهاً واحداً واجماً بين وجوه الناس العابرين من حولي • لقد عاد الربيع ومنح بهجته الحارة للجميع • بعضهم مسرع الى دور السينما ، وآخرون يتسكعون منتشين بدفء الشمس ، والنساء باسمات العيون جميلات •• هكذا أنا أجدهن في هذا اليوم بالذات • من هذا الاحمق الذي يرفع يده محيياً ويقترب مني باسماً ؟ آه •• لقد تذكرته •• تعرفت اليه في المقهى ، وقابلته هناك عـدة مرات ، ولكني نسيت اسمه • شد على يدي بحرارة كأننا أصدقاء قدماء وقال : « الى أين ؟ » •

« ــ اتسكع دون هدف معين » •

« ــ أنا مثلك » •

وسار بقربي ، وطفق يثرثر • تحدث عن عمله ، عن حياته ، عن الفتاة التي يحبها والتي سيتقدم لخطبتها عما قريب •

يا للأبله ! ما الذي يعنيني من كل حديثه ؟

سألني : « هل تحب ؟ »

قلت : « أنا لا أحب » •

قال : « ألم تحب من قبل ؟ »

قلت : « لم أحب من قبل » •

فقال ضاحكاً : « اذن لم تذق طعم السعادة الحقيقية التي لا يهبها الا الحب وحده » •

يا للأبله ! هل أقول الصدق ؟ لقد أحببت احـدى

www.alkottob.com

الفتيات في يوم ما • أحببتها بقوة مثلما أحب الخبز والشوارع لكن الحب لم يمنحني سوى الكآبة ، منحني أيضاً نظرة جديدة الى المدينة التي أعيش فيها فأصبحت اجدها سخيفة قاسية •

صمت لحظة ثم قال : « ما هي أمنيتك التي تود تحقيقها ؟ » •

ماذا أجيب ؟ رأسي فراغ أبيض • أحياناً أود أن يتحول الناس كافة الى كلاب لا تتوقف لحظة عن النباح بصورة مزعجة •

قلت : « ليس لي أي أمنية » •

« ــ لا أصدق •• لا بد ان يكون لك أمنية ما » •

« ــ ما الجدوى من تكديس الامنيات اذا كنت أثق بأني لن أنال واحدة منها ؟ ما أقوله لك مستمد من حياتي • ليس هناك ما اشتهي نواله بعد ان املأ معدتي بالخبز واضاجع امرأة » •

وفكر لحظات قبل أن يقول بتردد : « اذن أنت لست واحداً من الناس » •

ما أصدقك أيها الغريب • أنا شيء فظ جاف خشن غير انساني •

وتابع كلامه متسائلاً : « لماذا تشتغل ما دام ليس لك ما تتمنى الفوز به ؟ » •

www.alkottob.com

فهززت رأسي وظللت صامتاً • أنا لم أفكر في مثل هذا الموضوع من قبل • أنا موظف بسيط في مكتب للدعاية • أقبع خاملاً طوال أيامي وراء الآلة الكاتبة بأصابع تتحرك ببلادة على ملامس الحروف • قد أكون اشتغل مدفوعاً بقوة ضغط ينبع من داخلي ، وقد أكون اشتغل من أجل تأمين رغيف أحشوه في معدتي ، أو من أجل امرأة تشتريها نقودي فترة معينة من الزمن • وداعاً أيها الغريب • اني احسّ ان جداراً شامخاً قد انتصب بيننا ولن نستطيع ان نتبادل كلمة •

وابتعدت عنه صاعداً في طريق الحجاز وأمامي كانت ساعة المحطة تشير الى الثالثة •

ها هي سينما عائدة ، فلأقف قليلاً عند الصور • وكان عند الباب واجهتان صفت فيهما صور الفيلم وراء لوح زجاجي ، فوقفت عند احداهما ، ورحت أتأمل الصور : قبضات منقضة على الفك والبطن •• مسدسات •• ظلال سوداء •• أصابع متقلصة رعباً •

وبلغ مسمعي صوت فيه رنة لزجة لفتت انتباهي : « هل الفيلم حلو ؟ » •

فأدرت رأسي مستطلعاً ، ونظرت جانباً حيث الواجهة الزجاجية الثانية ، كان هناك صبي عمره حوالي ست عشرة سنة •• وقف بقربه رجل كهل أعاد سؤاله الموجه الى الصبي : « هل الفيلم حلو ؟ » •

www.alkottob.com

فتردد الصبي لحظة ثم أجاب : « لا أعلم لاني لم أشاهده » .

قال الرجل الكهل : « الفيلم جميل كما يبدو من الصور . خذ .. اشترِ تذكرتين . واحدة لي وواحدة لك » .

ومد الرجل يده الى جيبه .

ووجدت نفسي أسعل سعلة خشنة ، وأبصق بصوت مسموع على الارض وبازدراء ، فاستدار الرجل اليّ وفي عينيه تصرخ نقمة محتجة بينما انتهز الصبي الفرصة وابتعد عنه بخطا مسرعة . حملقت الى الرجل متحدياً .. هيا .. هوايتي المفضلة اثارة المشاجرات . ارتبك الرجل امام نظراتي الثابتة . وفجأة انطلق يهرول في الاتجاه الذي سلكه الصبي .

وعدت الى المسير . آه يا مدينتي . لقد ولدت في يوم ما على أرصفتك وسأظل حتى الموت مغلولاً اليها . لكم هي قاسية تلك الضجة الصاخبة في شارع النصر الذي تزحف خطواتي على سطح رصيفه .. سيارات .. اتوبيسات .. شمس .. سماء .. أشجار خضرتها رائعة .. رجال .. نساء جميلات .. تحملق عيناي اليهن بنهم . كم أتمنى أن تكون لي علاقة صداقة مع فتاة .. لا اريد أن أحبها انما أريدها فقط صديقة لا أكثر . سأحدثها عن كآبتي التي تغلني الى شوارع لولبية لا نهاية لها . سأحدثها عن الله والناس والخبز والليل الوحش الغريب . ولربما توقفت بغتةٍ عن

www.alkottob.com

الحديث وانخرطت في البكاء دون خجل وأنا أصرخ صراخاً طويلاً ممطوطاً كنباح كلب يضرب بقسوة • لكن اين تلك الفتاة ؟

واعترضت طريقي بائعة أوراق يانصيب قائلة : « اشتر واحدة » •

وكانت جميلة تقترب بسرعة ــ فيما أظن ــ من العام العاشر فقلت لها : « لا » •

« ــ ستربح » •

وراحت تلح علي بينما أخذت اراقبها باسماً • لقد خدعتها البذلة الانيقة والحذاء اللامع والقميص الابيض ذو الياقة الصلبة وربطة العنق • قلت مازحاً : « لن اشتري ، لكني سأعطيك خمس ليرات اذا ذهبت معي الى البيت » •

فرمقتني الفتاة الصغيرة بنظرة جمدتني نادماً في مكاني • نظرة فيها أسف وازدراء وحزن • تعالي يا صغيرتي • سأشتري منك بكل ما معي من نقود ، ولكنها ابتعدت عني • آه يا لي من حقير • وبدأ يعوي في داخلي الاحساس بالغربة البلهاء •

ابي بوجهه المتجعد يقول ساخراً : أنت ولد لا تنفع لشيء •

أمي تردد كلماتها التي اعتادت قذفها في وجهي ووجه أبي بصوت اسيان : حياتي ضائعة بين أرجلكم •

www.alkottob.com

أقاربي بأعينهم التي تقطر شماتة يقولون : اذا ظللت تعيش هكذا فمستقبلك أسود .

تصورت كل هذا بينما أنا متسمر على حافة الرصيف المكتظ بالناس ، وشعرت بالرغبة في ان اغرق في غيبوبة طويلة .

ومرت أمامي في تلك اللحظة عدة فتيات يتحدثن ويضحكن بمرح ، وتطلعت الي احداهن وابتسمت ابتسامة حانية اضاءت وجهها الوديع . أواه أيتها الفتاة الطيبة ، اني لا استحق ابتسامتك ، فلو تمهلت في سيرك ، ربما دنوت منك وقلت : « سأكون انساناً طيباً لو كانت مدينتي مثلك » .

www.alkottob.com

النجوم فوق الغابة

يرحل النهـار ساحباً خلفه شمسه الميتة ببطء يثير سأم نزار المضطجع على ظهره فوق سرير حديدي ضيق ، فأشواقه تواقة الى رؤية سماء كبيرة سوداء مرصعة بنجوم متلألئة لا عدد لها ، وقد حاول مرة ان يعرف عددها فمنعته أمه من احصائها قائلة : « من يعرف عدد النجوم •• يموت » •

ويتململ نزار تحت اللحاف الذي يغطي نصف جسمه ، ويتطلع بعينين نصف مغمضتين الى قرد صغير محنط يجلس القرفصاء فوق سطح الطاولة القريبة ، مادا ذراعيه الى الامام ببلاهة ، ومن عينيه تطل نظرة ماكرة وساذجة في آن واحد•

ويبتسم نزار بوهن اذ تذكر كلمات غسان اخيه الكبير حينما أهداه ذلك القرد قبل أيام ، فقد قال له : « هيا يا نزار •• تخلص من مرضك بسرعة • عيد ميلادك بعد شهرين •

www.alkottob.com

عندئذ ستكون هديتي لك دراجة ، دراجة ليست صغيرة ، بل دراجة كبيرة لأنك ستصبح بعد شهرين رجلاً كبيراً • سيصير عمرك سبع سنوات • وما رأيك في هذا القردالظريف؟ هل أعجبك ؟ انه سيسليك أكثر من سميرة » •

فصاحت آنـذاك الاخت الشاحبة متصنعة الغضب :

« أسكت •• كيف تقارن اختك بقرد ؟ لسانك طويل جداً ويحتاج الى قطع جزء منه » •

ثم تابعت بعد لحظة صمت موجهة كلامها الى نزار :

« هل تعرف اسم قردك ؟ » •

فأجاب نزار بتردد بينما كانت عيناه ترمق القرد بفضول :

« اسمه •• اسمه •• اسمه لوجي » •

« – ما هذا الاسم الغريب ؟ » •

فقال نزار بثقة : « هذا اسمه الحقيقي » •

ونشأت منذ تلك اللحظة صداقة قوية بينه وبين القرد ، وقال نزار للقرد عندما أصبحا وحدهما في الغرفة : « لوجي أمي لا تحبني • أمي ماتت • أمي الآن نجمة » •

فقال القرد : « لا تحزن يا نزار • كل الامهات قاسيات »

وهكذا اعتاد الاثنان الثرثرة معاً •

وتتسع ابتسامة نزار بينما هو مستمر في التحديق الى وجه القرد المحنط القابع فوق الطاولة ، وترتعش أهـدابه بوداعة قبل ان يقول متسائلاً : « لوجي •• من أين أتيت ؟ أليس لك بيت ؟ » •

www.alkottob.com

فقال القرد الصغير بصوت أرعشه التأثر : « بيتي في الغابات البعيدة • أنا جئت من هناك » •

فقال نزار : « لوجي •• أنا لا أعرف الغابات » •

فتنهد القرد ثم قال : « الغابات جميلة جداً • انها كبيرة جداً • هناك لا صقيع ولا حرارة شديدة • الاشجار هناك طويلة جداً حتى ان رؤوسها تتحدث ليلاً مع النجوم » •

« هل يوجد في الغابات نجوم ؟ » •

« النجوم هناك ليست متعجرفة خرساء • نجوم الغابات لطيفة تحب التحدث مع الاطفال • وأحياناً عندما تتعب النجوم ، تنزل من عليائها لتنام على فراش من ورق الشجر » •

« لوجي •• خذني الى غابة » •

« سنهرب معاً في أحد الايام » •

ويلوذ الاثنان بالصمت اذ يفتح باب الغرفة في تلك اللحظة ، ويدلف الى الداخل سميره وغسان فيستقبلهما نزار بابتسامة عريضة •

ويقول غسان وهو يجلس على مقعد خشبي قريب من السرير : « كيف حالك اليوم يا نزار ؟ أنت في تحسن • هذا عظيم • قل لي •• هل ضايقتك سميرة ؟ » •

فتصيح سميرة : « غسان ألا تكف عن التحرش بي ؟ لماذا تحب الشجار الى هذا الحد ؟ » •

ويقول نزار وهو يشير بأصبعه الى اكورديون ملقى على

www.alkottob.com

الاريكة الطويلة : « اعزف لي على الاكورديون يا غسان » •

واغمض نزار عينيه حينما بدأ أخوه بالعزف • انساب لحن عذب مترجرج كمياه نهر رحلته طويلة ، فغادر نزار الغرفة على الرغم من ان جسده ظل تحت أغطية السرير • انه الآن في بساتين خضراء ، يمشي على مهل • تقول له وردة حمراء : « يا ولد يا ولد •• أنا عطشى » •

فيذعر نزار • يركض مبتعداً عن مكان الوردة • يصل الى قصر فخم شاهق الاسوار • يطرق بابه الحديدي الكبير• افتحوا افتحوا • انا تعبان • ولكن الباب يظل مقفلا • فيضطر نزار الى معاودة المشي مرة ثانية • مرّ أمام شجرة تفـاح ، فأحنت له رأسها بوقار ــ كل أشجار التفاح مهذبات ــ وقالت : « اني أدعوك يا نزار الى تناول شيء من ثماري » •

فقال نزار وقد أفرحته كلماتها : « أنت جميلة جداً وسخية جداً يا شجرة التفاح • اشكرك • أنا لست جائعاً » •

قالت شجرة التفاح : « الى أين أنت ذاهب يا نزار ؟ » •

فقال نزار بصوت متهدج وديع : « اني أفتش عن أمي • أمي في الليل نجمة ، وفي النهار تهبط الى الارض لتنام » •

قالت شجرة التفاح : « ان عثرت في طريقك على البلبل فقل له ان صديقته شجرةالتفاح حزينة وبحاجة الى غنائه • هل صوتك جميل يا نزار ؟ غن لي • أنا حزينة » •

فأخذ نزار يغني مردداً : « أمي أمي أمي » •

www.alkottob.com

فقاطعته شجرة التفاح متسائلة بشيء من الكآبة : « أتحب أمك كثيراً يا نزار ؟ » .

« أنا أحبها كثيراً ولكنها هي لا تحبني فقد ماتت قبل آشهر وتركتني وحدي . كانت تحكي لي حكايات مسلية . أروي لي حكاية يا شجرة التفاح » .

« أنا لا أحفظ حكايات . ذاكرتي ضعيفة » .

« سأبكي » .

« لا تبك . سأحكي لك حكاية قديمة جداً . في يوم من الايام ، ولد طفل ، كبر طفل ، صار رجلاً ، ثم هرم ، ثم مات . انتهت الحكاية » .

« ألم يقابل بطل حكايتك عفريتاً ؟ » .

« لم يقابل عفريتاً » .

« ألم يحب بنت الملك ؟ » .

« لم يحب بنت الملك » .

« ألم ينتصر وحده على جيش الاعداء ؟ » .

« لم ينتصر وحده على جيش الاعداء » .

« ألم يكن يملك الطاقية التي تخفي لابسها عن العيون ؟»

« لم يكن يملك الطاقية التي تخفي لابسها عن العيون » .

فضحك نزار بهزء وقال لشجرة التفاح : « حكايات أمي أجمل من حكايتك » .

« اذهب الى عند أمك » .

« أمي في الجنة .. أين الجنة ؟ » .

www.alkottob.com

« أمك في القبر » .

« أمي في الجنة » .

« أمك في القبر .. في القبر » .

ويسمع نزار صوتاً ناعماً ينادي بحنان : « نزار نزار » . فيلتفت بسرعة نحو مصدر الصوت ، فيفاجأ برؤية أمه تبتسم له بعذوبة ، فيهرع اليها ، ويلتصق بها ، ويمرغ وجهه في ثوبها ، وهو يغمغم : « أمي أمي » .

ويتوقف غسان في تلك اللحظة عن العزف على الاكورديون، ويهمس مخاطباً أخته الواجمة بلهجة اسيانة : « نام نزار ، هلمي نغادر الغرفة دون ضجة » .

فتتطلع اليه سميرة بعينين حانيتين ، وتود لو تقول له : وجهك يا أخي يتحول الى قطعة من الحجر الحزين عندما تعزف على الاكورديون . لا فائدة في العيش مع الذكريات. أنس نهلة صديقتي التي تزوجها غيرك .

وسمعته يقول بضيق : « ماذا تنتظرين يا سميرة ؟ » .

فاتجهت سميرة نحو الطاولة ، وتناولت القرد الصغير المحنط ، فسألها غسان : « لماذا أخذته ؟ اتركيه في مكانه » .

« ــ هذا القرد يضايقني،واعتقد انه يترك أثراً سيئاً في نزار . كثيراً ما أدخل الغرفة فأجد نزاراً يحدث القرد بصوت مرتفع . سآخذه وارميه في السقيفة » .

ولم يمض وقت طويل على خروجهما حتى سمعت سميره

www.alkottob.com

صياحاً باكياً ينبعث من غرفة نزار ، فأسرعت اليها فوجدت نزاراً يبكي بحرقة .

« ـــ ما بك ؟ » .

فأشار الى الطاولة ذات السطح الخاوي ، وقال : « لوجي سافر الى الغابات . لم يأخذني معه .. لم يأخذني معه » .

فقالت سميرة محاولة تهدئته : « لا تبك .. لا تبك . القرود أخلاقها سيئة » .

« ـ أريد أن أذهب الى الغابات » .

« ـــ سأذهب معك الى الغابات عندما تشفى من مرضك » .

« ـــ لن نخبر أحداً .. سنذهب وحدنا » .

فابتسمت الاخت ، وقالت وهي تربت على شعره بحنو :

« سنذهب وحدنا » .

ولم تكد تستدير نحو باب الغرفة حتى تجمدت في مكانها مرتجفة حينما سمعت نزاراً يجهش بالبكاء صارخاً بمرارة :

« أريد أمي أريد أمي » .

www.alkottob.com

الصيّف

كان جسدها جميلاً حاراً ، حاولت أن تبعده عن يديه لحظة جلس بجانبها على الاريكة ، غير ان ساعده كان سريعاً فطوق الخصر بقسوة • الجسد ممتليء وليونة اللحم تبعث في أوصاله رعدة متشنجة • عينا الفتاة آسرتان • لم يستطع المقاومة • ثمة استغاثة ضائعة في العينين • أطبقت أهدابها ، وقالت : « اتركني يا ماجد •• أرجوك » •

وكان وجهه قريباً من وجهها ، فدنت شفتاه ومستا شفتيها مساً رفيقاً ، كان كافياً لأن يجعله يشعر برقة الشفة ونعومتها، وغمره احساس عجيب في تلك اللحظة كاد يدفعه الى ان يجثو على ركبتيه قبالتها ويسقط رأسه في احضانها وهو يلهث •

« – اتركني يا ماجد •• ارجوك •• أريد أن أذهب » •

www.alkottob.com

كيف يتركها تذهب ؟ لقد توسل اليها كثيراً حتى زارته ، وهما الآن وحدهما في غرفة موصدة الباب ، فكيف يتركها تذهب ؟

قال بصوت خافت مرتعش : « احبك يا عطاف » .

فأجابت بنزق : « أنت تكذب . انت لا تحبني » .

انه لا يستطيع ان يحدد بدقة نو ع مشاعره نحوها . أيحبها أم يشتهي جسدها فقط ؟

وقبل شفتيها بشراهة ، وقال متسائلاً : « لماذا أقبلك هكذا اذا لم أكن أحبك ؟ » .

لن تستطيع ان تجيب عن سؤاله على الرغم من انها تعرف الجواب ، تلمحه في عينيه ، في نظرته النهمة الغريبة التي تجعلها تذعر . هناك شيء ما غامض في جسدها بدأ يستفيق باعثاً في أعماقها هلعاً قاسياً ، فودت لو تغمض عينيها لحظة ثم تفتحهما فجأة فتجد نفسها في شارع مكتظ بالناس أو في غرفتها حيث يتعالى نداء أمها بين الفينة والفينة .

وندت عنها آهة لم تستطع منعها من الافلات بينما كانت يد ماجد الخشنة تلمس جسدها وهي ثملة منتشية بالنعومة .

قالت عطاف : « اتركني ياماجد . قد يرانا أحد » .

« ــ نحن وحدنا في الغرفة » .

« ــ النافذة مفتوحة » .

وضحكت امرأة تقف في شرفة البناية المقابلة وقالت لامرأة بقربها : « هل أبصرت ما حدث ؟ ماجد ابن جيراننا

www.alkottob.com

ادخل فتاة الى البيت • أهله مسافرون • وها هو الآن يغلق نافذة غرفته رغم الحر الشديد » •

وزعقت تحت الشرفة صفارة الشرطي ، وانبعث صرير فرامل سيارة توقفت فجأة ، وأطل من نافذتها وجه امرأة واجه الشرطي بتساؤل •

وحدق الشرطي الى الوجه الجميل المتألق ، ومرت فترة صمت قبل أن يقول : « انت مسرعة في سيرك » •

فقالت المرأة بصوت عذب رقيق أثار في نفسه حنانا غامضاً : « اعترف بجريمتي » •

وتلألأت في عينيها ابتسامة غريبة ، فأشار الشرطي بيده الى الامام ، فتحركت السيارة مبتعدة عنه ، وظل يتابعها بنظراته حتى اختفت • الوجه الجميل والصوت والابتسامة •• كل ذلك ذكره بليلة أمس • تشاجر مع زوجته • وعندما رقد في الفراش ، التصق بها فلم تتحرك • يا للعينة ! انها تعرف كيف تنتقم منه اذ تعطيه جسداً بارداً هامداً اذا لم يبادر الى ارضائها بالنقود •

الشمس ترمي لهيبها فوقه ، والشارع مقفر • وتملكه شوق قوي الى ان يكون الآن في البيت متمدداً في غرفته الرطبة وبجانبه زوجته •

الشمس قاسية ، والعرق يسيل لزجاً من كل جسمه ، وحملقت عيناه الى فتاة خرجت من فم احدى المباني ، واتجهت نحو دكان البقال القريب •

www.alkottob.com

ورفع صاحب دكان البقالة رأسه عن دفتر الحسابات ، ومسح براحته العرق المتصبب من وجهه ، وتطلع الى الخادم التي دخلت ووقفت أمامه . كانت قريبة جداً فلو انحنى قليلاً الى الامام لأصبح وجهه ملتصقاً بنهديها . انها ناضجة الى حد يجعله يحس بالرعب منها . ولقد طالما ضحك من احساسه هذا ، وحاول مراراً الرد على تحرشاتها الكثيرة ، ولكن ذلك الاحساس كان أقوى منه فيشله عن الحركة . انه لا يدري لم أصبح يذكرها كلما غرس أسنانه في تفاحة ناضجة شهية .

صاحت الخادم : « ما بالك جامداً كالميت ؟ هل أنت مريض ؟ قم واعطني ما أريد » .

واستمر يحملق لحظات ثم مد يداً مرتجفة شرهة الى النهدين المكتنزين ، ولم تتحرك الخادم انما ابتسمت له ابتسامة عريضة .

قال : « هل أنت مستعجلة ؟ »

« – انهم ينتظرونني » .

« – هل تأتين في المساء ؟ » .

فهزت رأسها ضاحكة ضحكة ناعمة ، ومدت أصابعها وقرصت شفته السفلى بشدة .

الشمس مجنونة اللهب ، والهواء الرطب ميت ، والشارع شبه مقفر .

وأسندت عطاف رأسها الى صدر ماجد ، وقالت :

www.alkottob.com

« سيقتلني ابي اذا علم بما حدث » •

« ــ هل أنت نادمة ؟ »

« ــ لست نادمة ، متى سنتزوج يا ماجد ؟ » •

« ــ سنتزوج قريباً يا حبيبتي » •

ولاذ ماجد بالصمت ، فنهضت عطاف،وقالت : « سأذهب لقد تأخرت » •

أوصلها ماجد الى الباب ، ضمها اليه بفتور • قبلها ، كانت سعيدة مشرقة الوجه • قبلته بشوق قبل ان يوصد الباب خلفها •

وعاد الى غرفته مسرعاً ، وارتمى على أحد المقاعد وهو يحس بأن كل الخيوط التي كانت تربطه بالحياة قد تقطعت فجأة ، وتركته غريباً كل الغرابة عن كل شيء حوله •

وتمطى سؤال عطاف في أعماقه : متى سنتزوج ؟

أنا أشعر بنفور من هذا السؤال فقد استسلمت لي وها هي ذي تطالب بالثمن : الزواج •

كل ما في مدينتي له ثمن معين ، لا احد يعطي شيئاً دون مقابل •

كلهم تجـار من نوع جديد راق • انهم منتشرون في كل مكان وراء أقنعة مختلفة • كم أبغض هذا النوع من البشر ، ابغضه بغضاً جنونياً وها أنذا أكتشف ان عطاف واحدة منه •

سألتني : متى سنتزوج ؟

فقلت فوراً وببلاهة : سنتزوج قريباً •

www.alkottob.com

ما العمل ؟ عقلي يرفض التفكير • تحول الى كتلة من الحجر الصلد •

شعر ماجد بالضيق ، فنهض عن مقعده ، وارتدى سترته ، وغادر الغرفة خارجاً الى الشارع •

الشارع •• انه مأواه الكبير • وطفق يمشي على مهل غير عابيء بالشمس ذات اللهب المجنون •

قالت عطاف : متى سنتزوج ؟

فقلت فوراً وببلاهة : سنتزوج قريباً •

لقد حلمت من قبل بالزواج من عطاف ، ولكن •• الآن قد تبدل كل شيء • ليتها استسلمت لي كدليل على حبها ، ولكن ذلك السؤال الكريه الذي قفز بوحشية مطالباً بالثمن : (الزواج) حطم كل شيء •

وتوقف ماجد عن المسير ، واستند الى سور حديقة احدى البنايات • ما العمل ؟ هل أتزوجها ؟ هل أدفع الثمن ؟ ليس في أعماقي سوى الاشمئزاز • لن أتزوجها • وليأت الغد حاملاً الي الفضيحة والمصائب •

وجمع ماجد لعابه في بصقة قذفها الى الارض ، وتابع مسيره بخطا متثاقلة ، وأمامه كان الاسفلت بوجهه الاسمر المتعب يلهث تحت ضياء شمس حارة •

www.alkottob.com

الكنز

كان أحمد رجلاً طويل القامة هزيلها ، يعيش وحده بلا زوجة في منزل صغير ذي حديقة جميلة ، وردها حلم منذ ولادته بأن تقطفه يد امرأة ، ولم يذق في أية مرة طعم الندى المنهمر من ضحكة ناعمة تنفلت كآهة ثملة من بين شفتي امرأة طرية اللحم .

واستفاق احمد في صباح يوم من الايام على رنين جرس الباب ، فدهش وقال لنفسه باستغراب : من القادم يا ترى ؟

ونهض من سريره بتثاقل ، واتجه نحو الباب وفتحه وهو يتثاءب ، فوجد قبالته رجلاً هرماً له لحية بيضاء وعينان رماديتان تتألق في غوريهما قسوة ممتزجة بحنان أطفال .

قال الرجل الهرم الغريب : « أنا الشيخ عبدو » .

فسعل أحمد سعلة جافة قصيرة ، ولعن في سره السجائر

www.alkottob.com

بينما اردف الشيخ عبدو قائلاً « هل تسمح لي بالدخول ؟» .

وتساءل أحمد : ماذا يريد هذا المهتريء في هذا الوقت المبكر ؟

وقال الشيخ عبدو اثر جلوسه على مقعد خشبي في غرفة أحمد : « اسمي الشيخ عبدو .. مهنتي البحث عن الكنوز » .

فأطلت من عيني أحمد نظرة متعجبة وقال : « كنوز ؟ ! »

فابتسم الشيخ عبدو وقال بصوت كله ثقة واعتداد : « العالم يا ولدي مليء بالكنوز المختبئة التي تنتظر من يعثر عليها . ولعلك تتساءل عن علاقة هذا الكلام بك . اني سأتحدث باختصار . في حديقتك كنز مدفون ، ومكانه بالضبط تحت شجرة الليمون . سنحفر هناك ، وسنعثر على جرتين مليئتين بالذهب . أنت خذ الذهب ، واعطني الجرتين الفارغتين فقط ، ما رأيك ؟ » .

ولم يجب أحمد بكلمة انما حملق مذهولاً الى وجه الشيخ عبدو . يا ربي .. هل هذا حلم ؟ هل سأصبح غنياً ؟ ألن أجوع ؟

وقال الشيخ عبدو بلهجة آمرة : « هيا .. احضر معولاً ورفشاً » .

وبعد دقائق ابتدأ أحمد بحفر الارض تحت شجرة الليمون بينما جلس الشيخ عبدو يدمدم بكلمات غير مفهومة .

وتوقف احمد عن الحفر بعد فترة من الزمن ليمسح العرق

www.alkottob.com

المتصبب من جبهته ، فقال له الشيخ عبدو وهو يمد يده نحوه : « خذ هذه القنينة • شرابها منعش للغاية » •

وأفرغ احمد في جوفه السائل الذي تحتويه القنينة ، ولم تمض سوى لحظات حتى احس ان شيئاً ما قد انفصل عنه ليكون وحده مخلوقاً آخراً يحب التشرد في أزقة العالم ، وله أيضاً اسم احمـــد •

وهكذا كان احمد يحفر باحثاً عن الذهب بينما كان احمد الثاني ينطلق عبر العالم ليعيش كما يشتهي • دخل الى خمارة وجلس وراء طاولة منزوية ترامت عليها اضواء شاحبة ، واخذ يحتسي كأساً من النبيذ العتيق ، وتجيء امرأة وتقعد لصقه وتتناول كأسه وترفعه الى شفتيها وتقول : « أنا أحب النبيذ والرجال » •

فيقول لها أحمد : « أنا لا أحب الا الذهب » •

فتقول المرأة : « لا تغضب • أنا أيضاً أحب الذهب » •

فيقول احمد : « أنا أريد أن أكون الرجل الوحيد الذي يحب الذهب بجنون اما بقية الناس فأريدهم ان يكونوا مجرد بلهاء ينتظرون ببلادة خبزهم وموتهم وساعة نومهم • سأصنع امرأة من ذهب وسأحبها بضراوة » •

وكان أحمد الاول ما زال يحفر ، وبقربه الشيخ عبدو يدمدم بكلمات غامضة وحشية الايقاع ، أما أحمد الآخر الافاق القديم فقد كان في تلك اللحظة يغادر الخمارة غاضباً ،

www.alkottob.com

ويمشي على اسمنت رصيف مطل على بحر كبير ، وينصت بذهول الى هدير الموج ، فيتذكر أيام كان سمكة ضئيلة ذات ألوان براقة ، تغوص في أعماق المياه المظلمة لحظة تسمع صوت شبكة الصياد ترتمي من أعلى مقتربة من مكانها ، سمكة شاهدت مولد اول نجمة في الفراغ الاسود الكثيف .

وقال الشيخ عبدو : « احفر يا احمد .. احفر .. سنجد الذهب وسنحيا سعداء » .

وكان احمد الثاني يسير آنذاك متأبطاً ذراع صديق يشتم العالم ، ويقول : « هرون الرشيد ملك » .

فيجيبه أحمد : « وزيره جعفر وزوجته امرأة جميلة اسمها : زبيدة » .

فيقول الصديق : « اسمك يا مولاي مسرور الجلاد الذي يقطع الرؤوس بسهولة » .

فيقول أحمد بغضب : « أتشتمني ؟ هل أنا جلاد ؟ » .

ويستل احمد من جيبه مدية ويطعن بها صدر صديقه طعنة قاسية فيصرخ الصديق بذعر : « ستقتلني » .

فيصيح أحمد بينما هو مستمر في طعنه : « سأجعل من جثتك غربالاً » .

فيتمتم الصديق بصوت واهن وهو يتهاوى على الارض : « قتلتني .. أنا أخوك الصغير الذي هربت منه طفولته » .

فيرتمي أحمد على الجثة التي فقدت صوتها حتى الأبد ، وينتحب كمومس معدتها بلا خبز .

www.alkottob.com

وقال الشيخ عبدو : « احفر يا احمد • وجه الذهب جميل للغاية • هو وحده شمس تضيء القلب المظلم الذي حولته التعاسة الى ليل ابدي السواد » •

وظل أحمد يحفر بحركات سريعة رتيبة بينما شوقه الى الذهب ينمو كقطيع من السحب السوداء المتراكضة على صفحة سماء مضاءة ببقايا من نور أصفر متوهج •

وقال أحمد الآخر الأفاق لفتاة أبصرها تقف أمام واجهة محل لبيع الاسطوانات : « جسدك أغنية من لهب ، عشقتها قبل أن أولد » •

فقالت الفتاة بخجل : « كيف تجرؤ على التكلم معي • ابتعد • سيضربك أبي ان شاهدك وأنت تحدثني » •

قال أحمد : « ابوك ميت » •

قالت الفتاة : « سيضربك أخي » •

قال أحمد : « أخوك ميت • امك ميتة • كل الناس ماتوا • ولم يبق سوانا في العالم • ستعيشين معي امرأة سعيدة لن تنجب أطفالاً » •

قالت الفتاة : « أنت أعمى • أين عيناك ؟ ما زال جميع الناس أحياء » •

فاستولى على أحمد يأس مر دفعه الى أن يركض نحو البحر وهو يقول لنفسه : سأرجع الى البحر سمكة ضئيلة جميلة الالوان •

وارتجفت أحضان البحر وهي تتلقف جسد أحمد الذي

www.alkottob.com

يحب التشرد في أزقة العالم • وفي تلك اللحظة انسلت من التراب أفعى التفت حول ساق أحمد الآخر الذي كان منهمكاً في الحفر ، فصاح بهلع : « يا شيخ عبدو •• لسعتني الافعى • سأموت • اسرع • احضر الطبيب • لا تهرب • أوه • لقد عرفتك • لقد كنت مختبئاً خلف الاعوام الكثيرة العدد • انت •• » •

ولم يكمل أحمد جملته اذ احس بيد تلمس جلد جبينه بحنو ، وسمع صوتاً يقول شيئاً ما ، ففتح عينيه فوجد جسده ملقى على سرير في غرفة جدرانها بيض ، وبقربه كان يقف رجل وامرأة يرتديان ثياباً بيضاً ، وكان للرجل عينان رماديتان متألقتان خلف نظارة رقيقة الزجاج •

قال أحمد بصوت خفيض : « ما الذي اتى بي الى هنا ؟ »

قال الرجل : « أنت بخير • لا تنزعج • صدمتك سيارة في أثناء عبورك الشارع » •

فتطلع أحمد الى المرأة بحيرة ، فابتسمت له ابتسامة جذابة منحت وجهها الوسيم فتنة عارمة وقالت : « اطمئن •• ستكون بعد أيام قوياً كالحصان » •

فأغمض أحمد عينيه بينما ترامى الى مسمعه ضجيج المدينة المتسرب من نافذة الغرفة المطلة على الشارع ، وتبددت العتمة المخيمة في رأسه ، وتذكر تلك اللحظة التي تكثفت فيها حوادث صغيرة تتابعت في سرعة مخيفة : بوق سيارة •• صرير فرامل •• صدمة قاسية في ظهره ، فانكفأ على وجهه

www.alkottob.com

مطلقاً صرخة ألم قبل ان يزحف السواد الى عينيه •

وابتسم أحمد بمرارة • اذن لن يصنع امرأة من ذهب ، وسيغادر المستشفى بعد أيام قليلة قوياً كالحصان ، وسيرجع الى أزقة مدينته رجلاً حزيناً بلا حبيبة وبلا عمل ، وقد تأتي لحظة جوع •• ميت فجرها ، فتجبره على أن يأكل عينيه بشراهة بدلاً من الخبز المفقود •

www.alkottob.com

النهر ميّت

انتحبت أمي طويلاً ، فالذباب أكل عيني صبية نضرة كسنبلة خضراء ، وقال لي أبي بصوت فظ : « طارق .. كف عن الابتسام » .

والتفت الى انثى بؤسها سرق دموعها ، وقال : « ألن تبوحي باسم عشيقك ؟ » .

وفي اليوم التالي مد الموت أذرعه الباردة ، واحتضن بشهوة جسد صبية نضرة كسنبلة خضراء ، وهمس ابي بلهجة حزينة : « طارق .. كف عن الابتسام .. أنت في مقبرة » .

وحينما عدت من المقبرة ، وقفت في غرفتي ، وتطلعت في مرآة صغيرة مثبتة على الحائط بوضع مائل ، وتساءلت بصوت هازىء : « هل هذا وجهي ؟ » .

www.alkottob.com

فوجهي الوديع الذي تلتصق به ابتسامة دائمة ، يثير غضب أبي ، فيصرخ بحنق : « ليتك لم تولد » .

فأقهقه مغتبطاً ، وقهقه أبي مثلي عندما أخبره بعض أصحابي بأنه قبض علي ليلاً مع مومس في بستان ، وقال : « أنا سعيد جداً . ولدي طارق لم يعد طفلاً . انه الآن رجل .. اتمنى ان يصبح كالنهر » .

النهر .. انه صديقي الذي أحبه وأرهبه في آن واحد ، فهديره متحد بأنفاسي . أنه يسلبني طمأنينتي فتبدو لي المدينة بمخلوقاتها .. كتلة كبيرة متموجة باللحم والحجر ، أطل عليها من أعلى بشبق شبيه بالنهر الذي يكره التجمد في شكل معين .

واستندت بمرفقي الى السور الحجري ، وثبت نظراتي على مياه النهر المتدفقة تحت ضياء نهار ناعم ، وقلت لنفسي :

ليتني نهر .. ليتني بلا أب .. بلا مدينة .. بلا اسم .

اسمي طارق ، ولدت في ليلة مخنوقة بصيف حار ، مدينتي عتيقة جداً كنهرها الذي يخترقها من أولها الى آخرها .

وفي يوم ما ، قديم ، أحرق رجل اسمه طارق السفن التي حملت جيوشه الى شاطىء أرض غريبة ، ثم خاطب رجاله قائلاً بصوت مشدود الى طمأنينة مفزعة : « البحر وراءكم .. والعدو أمامكم » .

ولا بد من ان احد الجنود قد سمر آنذاك عينيه الهلعتين

www.alkottob.com

على سحب الدخان المتصاعدة من الحريق ، ثم ترك رأسه يتهدل على صدره فبدا كمشنوق بلا حبل •

وفي يوم من الايام عشقت فتاة عيناها واسعتان ، زرقتهما صافية أجمل من أروع سماء • ولم أحاول في أية مرة ان أبوح لها بحبي الذي يعذبني ويشقيني انما اكتفيت بمراقبتها بوله حيثما كانت حتى أقبل ليل تعرى في ظلمته مخلوقان من أغلالهما الخفية ، وتلألأت أشواقي السجينة •

واشتريت في احدى الاماسي ديوان شعر بنقود لا أملك سواها •• قرأت قصائده الحزينة بحزن :

ماذا يشتهي الانسان
ان ملك الذي قد يشتهيه
ماذا ؟ •• سوى القمر
الذي قد يشتهيه

وضحكت ببلادة اذ ان قمري مات جائعاً في ليـــال ثلجها تساقط بغزارة •

وقلت لصديق ينظم قصائد كثيرة يأبى نشرها : « أنا أحب نجمة لا اشتهي نوالها » •

قال : « أنت مجنون • النهر ما زال حياً • لن تجف مياهه » •

قلت : « أنا أحب نجمة ميتة » •

قال : « أنت مجنون » •

www.alkottob.com

قلت : « أنا رماد .. سنـــدباد جثة مشنوقة في فراغ المدن » .

فقهقه بخشونة وقال : « أنا عنكبوت » .

فقلت بأسى : « أنا غبار » .

وانهمر الغبار بكثرة ، وتحجر في شكل حيوان جائع منذ قرون ، اطلق عواءه في اللحظة التي دخلت فيها جميلة بنت جيراننا الى منزلنا لزيارة أمي المريضة التي لا تفارق سريرها منذ موت صبية نضرة كسنبلة خضراء .

وتمطى الحيوان الجائع بفرح عندما خرجت جميلة من غرفة أمي لتملأ كوباً من الماء طلبته أمي ، فسارعت الى تطويق خصرها بساعدي ، وتمسك فمي بشفتها الطرية ، فأخذت تغمغم في الفترات التي كنت اسمح لشفتيها ببعض الحرية :

« أتحبني أتحبني أتحبني ؟ » .

قلت : « أنا أحب نجمة زرقاء » .

قالت : « لا تمزح .. النجوم بعيدة جداً .. أتحبني أتحبني ؟ » .

واغرورقت عينا صديق كنت أجلس في غرفته المضاءة بنور أصفر خفيف ، أنصت الى عزفه الاسود على الكمان ، وقال : « أنا وحيد على الرغم من حب زوجتي وأطفالي وأصدقائي وكل المسرات . النهر يغني على الرغم من كآبتي .. كآبة انسان جريح بعزلته الابدية » .

فقلت بصوت أجوف : « لا زوجة لي ، لا أطفال ، لا

www.alkottob.com

أصدقاء ، لا مسرات • الارض مقبرة كبيرة • النهر قد يكون تعساً مثلي » •

وتطلعت برعب الى صرصار أسود يدب على البلاطات البيضاء ، وصرخ صديقي : « لا تقتله •• ربما كان انساناً وحيداً » •

وارتعد جسدي حينما سمعت صوت انسحاق الصرصار تحت حذائي • أوه • كنت الهاً قاسياً كذباب مدينتي الذي أكل عينين زرقاوين ، نبعي حنـان تمتلكهما صبية نضرة كسنبلة خضراء •

وأحنيت رأسي في شارع مقفر ، واستولى علي خجل ممتزج بخوف عندما بصق في وجهي مخلوق لا أعرفه ـ ربما كان أبله ـ وقال : « اقتلني ان شئت •• ألم تغضب ؟ » •

قلت : « أتحب الموت الى هذه الدرجة ؟ » •

قال : « الموت شهي كأمرأة ناضجة » •

قلت : « انتحر اذن » •

قال : « أنا لا أملك ثمن خنجر يميتني • ليتني أملك ثمن خنجر » •

فأعطيته نقوداً تكفي لتحقيق أمنيته ، ثم سألته بينما كنت افكر في صبية نضرة كسنبلة خضراء ، انتحرت خلسة ذات ليلة : « هل ستنتحر الآن ؟ » •

فضحك بمرح وقال : « سأشتري الآن خبزاً ولحماً وقنينة نبيذ • الحيـاة جميلة » •

www.alkottob.com

فتركته ، ووقفت في زاوية الشارع ، وأخذت أساوم امرأة ازمعت شراء جسدها مدة ساعة واحدة فقط .

قالت : « ثمني عشر ليرات .. ستدفعها سلفاً » .

قلت : « هذا ثمن باهظ . أنا فقير » .

قالت : « أنا فقيرة مثلك » .

قلت : « لن أدفع سوى خمس ليرات » .

قالت : « عمري عشرون سنة فقط . جسدي أجمل بكثير من وجهي » .

قلت : « أنا فقير . عيناك ليستا زرقاوين . لن أدفع سوى خمس ليرات » .

قالت وهي تبتسم بخبث : « ماذا ستفعل ان رفضت الذهاب معك ؟ » .

فقلت : « سأرجع الى غرفتي ، وأوصد بابها ، وأتامل صورة امرأة جميلة عارية » .

وهطلت الامطار فوقي ، فبكيت بذل ، وقلت بصوت مرتفع : « آذار نيسان مايس .. الثلاثاء الاربعاء الخميس .. متى يتوقف هذا الركض المجنون ؟ سأدفن يوماً في حفرة ، ويظل النهر حياً . ليتني نهر » .

واحزنتني للغاية رغبة حارة في البكاء شاهدتها متلألئة في عيني فتاة وجهها وديع كوجه أختي التي أكل ذباب المدينة عينيها الزرقاوين اللتين هما أروع من أجمل سماء . اختي اختي يا نجمتي المسكينة . لا أحد سيبكي من أجلي .

www.alkottob.com

وعدت الى غرفتي ، وتمددت على فراشي ، وطفقت احملق بذهول الى بياض السقف الباهت • الجفاف موسيقاه الخشنة تقتحم كل المخابيء السرية ، وأصوات النهر التي ترافقني على الدوام تضمحل بغتة • هل مات النهر ؟ أختي صبية نضرة كسنبلة خضراء • لماذا ماتت ؟ لماذا ؟ طارق لا تحرق سفنك • لا تحرقها • حقدي يتسلق صخور جبال موحشة ، الجراد يطفىء أفراح الحقول • النهر ميت • تمزق القناع • هذا وجهي • أنا ذباب المدينة : النهر ذو الشفاه القاتمة الذي غمر لهيبها الشرس صبية نضرة كسنبلة خضراء • كانت نائمة غير ان لحمها الابيض أوقظ شمساً مجنونة ركضت في شوارع الدم المرتعد • القمر المتسمر خلف زجاج النافذة شاهد وحده جسدي ينزلق في الجسد الآخر • همست الصبية بذعر : لا • ضحكت بنشوة • قبلتني بخجل لم يعش سوى لحظات • انها تحبني • بكت بمرارة • انها تكرهني • هل قبلتني ؟ ماتت لانها تكرهني • لماذا انتحرت ؟ أوه •• السفن •• انها تحترق ، أنا خائف • سمرت عيني الهلعتين على سحب الدخان المتصاعدة من الحريق ، ثم تركت رأسي يتهدل على صدري بذل وانكسار • ليس لك أية مدينة يا طارق • احترقت السفن •

www.alkottob.com

قرنفلة للأسفلت المتعب

اضطجعت فتـاة ما على سريرها المتثائب في وجه النهـار الفتي ، واصغت وهي مغمضة العينين الى الغناء المنبعث من مذياع الجيران . كان ثمة امرأة تغني . صوتها مدينة خضراء تسافر اليها شمس ناعمة الضوء وسماء زرقاء وعصافير تبحث عن ربيع لا يرحل واصداء أجراس عذبة الايقاع تقرع عبر سهوب شديدة الحزن ، وكان ذلك الصوت يتصاعد مثقلاً بالنشوة والحنان والوداعة ، تظلله موسيقى شبيهة بطيور محومة فوق حقل أصفر .

وبعث الغناء في أعماق الفتاة فرحاً باهراً غريباً يحمل في جوفه حزناً قد يتفتح ورده الاسود في أية لحظة . وكان جسدها المسترخي فوق أغطية السرير ناضجاً كنبيذ هرم ، نسي يوم ولادته . كان جسدها آنئذ بلا رجل بحراً نائمة

www.alkottob.com

أمواجه السمراء .. وها قد بدأ يبزغ أساه الملفع ببكاء صامت ذليل ، المتلهف على ضجيج القوارب وضربات المجاديف الرتيبة الخاضعة لسواعد بحارة يملكون أجساداً مغطاة بطبقة من الشعر الخشن ومبللة بعطور ليست أرضية ، ولا يملكون وجوهاً .

واندفع بغتة الى مخيلة الفتاة وجه أمها ، وخيل اليها انها تسمع صوتها الحاد يردد كعادته : الرجال كلهم يعبدون المرأة بذل عندما يشمون رائحتها ولكنهم يبتعدون عنها بقرف لحظة تنطفيء شهوتهم .

وتذكرت الفتاة ما روته لها مرة جارة عجوز عن امرأة اختطفها سبعة رجال ، ولم تفلت من قبضتهم الا بعد عدة ليال ، وكانت النظرة الغامضة المطلة من عيني الجارة العجوز في أثناء حديثها تجعل الفتاة تميل الى الاعتقاد أن المرأة المختطفة لم تكن الا الجارة العجوز في أيام صباها .

ورددت الفتاة بلا صوت : سبعة رجال وامرأة واحدة فقط .. سبعة رجال ..

وأحست الفتاة ان الرجال السبعة قد اقتحموا غرفتها . انهم حولها . ايديهم تلمس لحمها بجوع . انهم يلهثون بصوت مسموع ، وتفوح منها رائحة حيوانات امتزج عرقها بأمطار مطلع الربيع .

وقال أحدهم : ستكون أكثر جمالاً وهي عارية .

فامتدت الاصابع في الحال الى ثوبها ومزقته ، ولم تشعر

www.alkottob.com

الفتاة بأي خجل انما غمرها فيض من العذوبة الممتزجة بحنين الى قسوة حارة • وقالت لنفسها : اذن أنا الآن عارية •• والرجال السبعة حول سريري •

قال الرجل الاول : « وجهها هديل حمامة •• انها أجمل من أمي » •

قال الرجل الثاني : « ما أجملها ! لم اقترب من امرأة منذ ولادتي » •

قال الرجل الثالث : « لحمها ناعم أسمر دافيء » •

قال الرجل الرابع : « أنا متعب • ليونة نهديها تخيفني » •

قال الرجل الخامس : « فمها قرنفل مرتجف » •

قال الرجل السادس : « سأهلك اذا لم أتساقط مطراً فوق غابة العطر الضائعة » •

وهتف الرجل السابع بضراعة يائسة : « آه يا الهي » •

وهمست الفتاة بارتعاش : « أوه أوه » •

وتعالى من خارج الغرفة صوت أمها يناديها بالحاح ، فتلاشى السبعة رجال ، وفتحت الفتاة عينيها وقالت لنفسها : سأكون سعيدة لو كانت أمي ميتة •

وفي تلك اللحظة بالذات كانت شمس الظهيرة متسمرة فوق طريق يطأ اسفلتها رجال رؤوسهم منكسة ، يتبعون بتثاقل تابوتاً • كان فيما مضى شجرة تحبها العصافير ويلوذ بظلالها المتعبون ، ولكنها تحولت الآن الى علبة كبيرة من الخشب يرقد في داخلها لحم بارد أصفر ، وقد كان هو الآخر

www.alkottob.com

قبل يوم واحد فقط رجلاً له بيته وغده وأحلامه وابتساماته.

لقد تعبت .

هل المقبرة بعيدة ؟

ماذا سنفعل بعد دفن الميت ؟

أنا جائع .. سنتغدّى .

وفي المقبرة كان حفار القبور قد أعد كل شيء ، ووقف ينتظر وهو يخفي ابتسامة خبيثة خلف قناع من الوجوم الذي ازداد قتامة لحظة اقتربت منه الجنازة .

وضع التابوت على الارض بالقرب من حفرة عميقة . ورفع غطاء التابوت وامتدت الايدي وحملت الجثة الملفوفة بقماش أبيض ربط عند نهاية القدمين والرأس . ولولت امرأة . بكى رجل بصمت . اهرب يا فرح . اغمضوا عيونكم يا أطفال . أين أنت يا موت ؟ ان عثرت عليك فسوف اذبحك ألف مرة في اللحظة العابرة بسرعة . ليل الحفرة ابتلع الجثة . سُدّ فم الحفرة بحجر كبير . أهيل فوقه كوم من التراب . وبعد دقائق تفرق الجميع واقفرت المقبرة ولم يبق سوى غراب قبع هنيهة فوق رأس شجرة ثم ما لبث أن حلق عبر الفضاء الازرق مرفرفاً بجناحيه الاسودين . وتوقف شابان عن المسير بالقرب من سور المقبرة ، وقال الشاب ذو القامة الهزيلة المديدة الشبيهة بشجرة يابسة : « لقد تضايقت للغاية من رؤية جثة الميت » .

www.alkottob.com

فأجابه الشاب الثاني وكان بديناً قصيراً تختفي عيناه وراء نظارة سوداء : « أنا تضايقت أيضاً كأن جثتي هي التي دفنت، ولكن الموت ملجأ مريح للرجال الذين هرموا » .

« — نحن أيضاً سنهرم . لن نحتفظ بشبابنا » .

« — لماذا تتكلم هكذا ؟ » .

« — اني أكره النهار ، فالضوء الفاضح والضجةوالشمس القاسية والازدحام .. كل ذلك يجعلني أفكر في الموت باستمرار . ويخيل الي اني بعد قليل سأسلم رأسي للاسفلت لكي تدعسه دواليب سيارة مسرعة . وربما سأقول لحظة اسمع تحطم عظام جمجمتي : خذي دمي يامدينتي قرنفلة قرمزية لصدرك المتعب » .

فضحك الشاب البدين وقال : « أنت تتكلم كالمجنون » .

« — كلنا مجانين . ديستوفسكي مجنون . سارتر أبله لا يحب الشمس . رامبو ولد غير مهذب . تشايكوفسكي ضفدع حزين . لوركا بلبل أسود . كافكا صرصار من حجر . جميس ماسون طبل » .

« — كلنا طبول ممزقة فقدت حتى الصوت الاجوف . ما الفائدة في الوقوف تحت الشمس ؟ لنسر » .

وابتسمت بنت صغيرة للشابين ، وكانت تقف خلف قضبان نافذة مطلة على الطريق ، وتردد بايقاع غنائي ساذج مرح : « ايمتى بدك تيجي يا ماما .. تأخرتي يا ماما » .

www.alkottob.com

ويتعالى من مئذنة مسجد عتيق صوت عذب : « الله أكبر .. الله أكبر » .

فيقول الشاب النحيل لزميله : « هلم نصلي » .

« – لماذا نصلي ؟ قد يكون الله نفسه يكرهنا » .

ويغمغم رجل كهل يجتاز الشارع بخطى بطيئة : « ما الفائدة من ذهب العالم بعد موتي ؟ » .

ويتجرأ شاب يشاهد فيلماً فيلمس باضطراب ذراع الفتاة الجالسة على المقعد المجاور .

ويتثاءب عامل متعب الوجه ، ويقول لنفسه وهو يمضغ لقمة كبيرة : كل يوم تتحطم جبهتي من أجلك يا رغيف ، يا عاري الكبير .

ويتكوم على أرض زقاق ضيق شاب ذو شعر أشقر تدلت خصلاته بوداعة على جبينه الشاحب ، ويضغط الشاب براحتيه على الدم المنبثق من جرحين عميقين متقاربين في الصدر .

أوه .. سأموت .. لماذا تحرشت بأخته ؟

والتفت حوله بسرعة حلقة من الاجساد المتدافعة والوجوه والافواه والعيون المفتوحة الى أقصاها .

من ضربه ؟

لا نعرف .

أنا شاهدت رجلاً طويلاً يركض هارباً .

دمه ينزف بغزارة .

www.alkottob.com

اطلبوا الشرطة وسيارة الاسعاف .

وتقف امرأة مكتنزة الجسد ، وتحملق بذعر الى الشاب الاشقر الذي يئن أنيناً موجعاً وهو يتلوى على وجه الارض.

وينتهز فتى في مقتبل العمر الاضطراب السائد ، فيقف خلف المرأة ويلصق جسمه بلحمها ، فتظل المرأة متجمدة في مكانها لحظات قبل ان تبتعد عند بحركة مفاجئة وتسير بخطا متعجلة ، فقد تذكرت مهنتها ، فهناك طفل يرقد في عتمة بطن أمه ، ينتظر يديها ، فقد حان الوقت لكي تبصر عيناه شمس العـالم ، ويغدو مخلوقاً له اسم وأب واخوة ومنزل وحي ومدينة وسرير صغير سيكبر سنة فسنة .

ويصيح جرسون بصوت يتصاعد خاملاً عبر ضجيج المقهى الكبير : « واحد قهوة » .

هات يا جرسون كأس ماء بارد . احجارك هي السوداء . ألق النرد . سأنتصر . قلت لها : ماذا ستخسرين ان اعطيتني قبلة ؟ فأجابت بسذاجة : ماذا ستخسر اذا لم أعطك قبلة ؟ البارحة تعطلت السيارة .. مازال الحمار سيداً . فليسقط أبي .. فلتعش امرأة جارنا . تفو .. كلنا سنموت .

ويدخل الى داخل المقهى رجل واجم الوجه ، ويجلس وراء احدى الطاولات ، وينفث دخان سيجارته وهو يقول لنفسه : لا فائدة في المقاومة . سأنتحر . حبيبتي تركتني وتحولت الى مومس صغيرة . أنا حزين . كانت تحب الاطفال الذين يبتسمون ببراءة ، ولكنها تركتني وتحولت الى مومس ،

www.alkottob.com

ما أجملها • شعرها تهواه وسادتي ، وفمها ــ حديقة الكرز الناضجة ــ يرمي على الدوام في دمي صيفاً عتيق الشمس • عيناها حمامتان وديعتان تحطمت أجنحتهما لحظة استلقت حبيبتي على ظهرها فوق بلاط باحة منزلي تحت أغصان شجرة الليمون ، ولقد همست آنذاك بصوت متهدج : « أنا خائفة » •

فقلت لها بحرارة : « لا تعذبيني • سأبكي كطفل شنقت أمه أمام عينيه » •

فابتسمت حبيبتي بغبطة ثملة كأن شرايينها امتلأت خمراً

بينما كانت يداي تنسيان بؤسهما القديم وتغرقان في عالم اللحم الذي أصبح فيما بعد ملكاً لرجال كثيرين •

أيها الرجل الكئيب •• هل ضحكت مرة ؟

وجهي خشب مهترىء بلا سماء • هل يضحك الميت ؟

مدينتي صليبها مقهى وشارع •

ما أمنيتك أيها الرجل الكئيب الاكثر حياة من أرض بكر؟

ان أنام مئة سنة •

www.alkottob.com

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

MARCH 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin

www.alkottob.com